الألوان الصارخة

facebook

Rebbah mustapha

instagram

this_is_mustapha_rebbah

snap-chat

mustaphareb

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى 1440 هـ - 2018 م
ردمك 5- 231- 79 – 9947- 978 (ISBN) :
التوزيع الدولي للكتاب/ مصر، لبنان، الأردن، السودان، العراق

اسم العمل: الألوان الصارخة
اسم المؤلف: رباح مصطفى
تصميم الغلاف: لغويل سيف الدين
المدير العام / سميرة منصوري
اخراج: فريق دار المثقف

الناشر / دار المثقف الجزائر/ دار ببلومانيا مصر للنشر والتوزيع
صفحة الدار على موقع فيسبوك:
/https://www.facebook.com/elmothakaf
الموقع الإلكتروني: www.elmmothakef.com
هاتف / فاكس 70 65 85 033 / 86 73 49 0675

المثقف للنشر والتوزيع

ببلومانيا مصر للنشر والتوزيع

جميع حقوق النشر الورقي و الإلكتروني والمرئي والمسموع
محفوظة للناشر وغير مسموح بتداول هذا الكتاب بالقص أو النسخ
أو التعديل إلا بإذن من الناشر

رباح مصطفى

الألوان الصارخة

رواية

بيلومانيا للنشر والتوزيع

المثقف

الإهداء :

إلى أحبتي

إلى أصدقـائي، ليـس مجـرد أصدقـاء {إبراهيـم، إسـلام، بـلال نزيهـة، بـشرى، didin}

إلى أمي وإخوتي

إلى أساتذتي {دربال، عرجان}

إلى محمد

أحبكم بحق

لاتقرأني كثيرا . . . لأنك تصاب بالعمى من كثرة الرخان في تاريخي .
إياك أن تعبر هذه القصيرة حافيا فهي مليئة بشظايا الزجاج . . .
فقبل قليل سقطت من بين أصابعي رؤياي إحدى مرايا الحزن وتهشمت على الأرض

«شيركو بيكه»

كل من يعرف سببا يعيش من أجله يمكنه تحمل أي طريقة يعيش بها

«فريدريك نيتشه»

حياة مليئة بالأخطاء هي ليست فقط مشرقة أكثر بل أكثر نفعا من حياة فارغة من عمل أي شيء

«جورج برنارد شو»

إنما حياة الإنسان على الأرض جهاد مستمر، رغم كونها محض عبور

«مي زيادة»

أنا لن أكون فما الذي سيكون حينئذ؟

لن يكون شيء، لكن أين سأكون حين تنقضي كينونتي؟ أهذه الموت حقا؟ لا لا أريد

«ليو تولستوي»

حتى حين نعود، نحن لانعود . . شيء منا يذهب للأبد

«غاليانو»

لا أحد يعرف أن البعض يبذلون جهودا جبارة لكي يكونوا مجرد أشخاص عاديين

«ألبير كامو»

الولد الذي يعيش مع أمه في الكوخ الصغير الذي عفا عليه الزمن، يدعى سعد اسم ليس على مسمى، لأنه دائما ما يكون تعيسا والحسرة بادية على وجهه، لا شيء خاص فيه يلفت النظر، فهذا الشاب لطيف دون شك، وإن يكن عصبيا صامتا من سلالة القلقين منذ الولادة فهو قلق على الدوام من انقضاء الوقت، قليل الصداقات، في هذا المكان في قرية صغيرة قرية هادئة ساكنة، فاليوم الذي يمر كالسابق بها،

في يوم من الأيام ولد سعد وفي تاريخ لن أكلف نفسي عناء ذكره إذ لا يمكن أن يكون له أية أهمية للقارئ، عاش مبتهجا مغمورا بمحبة أمه بعد أن حرم من حنان أبيه فقد توفي. سعد ولد طيب الذكر، لطيف المحيا، معتدل القامة، قوي البنية، أبيض البشرة، عيناه الواسعتان السوداوتان فيهما بريق من الأمل نوعا ما، ذو شعر أسود صقيل، عما قريب سينهي دراسته في الكلية، وله من العمر واحدا وعشرين سنة، مع أن مظهره يوحي للوهلة الأولى بأنه أصغر سنا على ما يبدو عليه، يداه كبيرتان وقويتان، إنهما يدا مزارع، لديهم حديقة كبيرة مليئة بالأزهار الجميلة الملونة والمتنوعة، لديهم تشكيلة رائعة ممزوجة، هذا ما جعل يداه كبيرتان وقويتان ربما بتأثير الملامسة اليومية لصلصال الحديقة التي يضطر للعمل فيها، يعتبرها سعد أهم شيء في المنزل فهي تقريبا ذكرى لوالده، تحتاج الكثير من الاهتمام ولا يوجد أحد آخر يهتم بها، بعد أن مرضت أمه بمرض مزمن ألا وهو مرض القلب وتحتاج إلى عملية زرع قلب في فرنسا، وهذا ما جعله يدرس في كلية الطب لجلب المال وعلاج أمه، أراد أن يكون جراحا ماهرا تماما مثل أخته التي تعيش الآن في لندن . ابنة العمدة أحمد، «إلينا» المدعوة «تينا» التي كانت تعيش في باريس، قبل فترة وجيزة توفيت أمها ليلى تبدو امرأة صالحة مختلفة تماما عن زوجها اللعين وابنته المعتوهة، التحقت تينا بالجامعة مبكرا وتماما بكلية الطب، كان سعد دائما الأول في قسمه، وكان يتحصل على علامات ممتازة إلى أن أتت الآنسة إلينا وأصبحت الأولى في الصف، وكانت تحصل على اهتمام كبير من طرف الطلاب والأساتذة، تتباهى بنفسها كثيرا وتفعل أي شيء يخطر في بالها، مع حراسها الحمقى الذين يلبسون أسودا ويضعون نظارات بنفس اللون، وضعهم العمدة لحماية ابنته، وفي كل يوم ثوب جديد تأتي لتتباهى به وكأنها

اهاها الجامعة أصبحت تعرض الأزياء، أصبح سعد حذرا من السلطة والمال ومن الأزياء خاصة، كان يعلم أنه سيأتي يوم وتصبح إلينا عبئا عليه، حافظ على المركز الثاني في الصف ولم يبالِ، وأتت عدة مرات لتستفزه وتقلل من شأنه، أما سعد فكان يتجاهلها طبعا لأنه لا يستطيع التكلم مع أحد أدنى منه علما، وأدنى منه خلقا.

بعد عدة أيام أتى الأستاذ طه ليعلمهم أنه لم يبق إلا القليل على تخرجهم، وسيتم اختيار الثلاثة الأوائل من الكلية، وهنا يأتي وقت الجد سيكون واحد منكم فقط طبيبا متخصصا في الجراحة، وواحد منكم فقط من سيحظى بالذهاب إلى إنجلترا ليرافقني لإجراء عملية جراحية لدمية اصطناعية وذكر أسماءهم والتي كانت كالتالي (إلينا، سعد، مروان) وسيكون فيها رابح واحد.

بعد أسبوع ذهبوا لإجراء العملية، كان النهار عند منتصفه ليسحق الأرصفة بكل ثقل حرارته، كان سعد قلقا جدا جدا والعرق يسيل من جبينه، لاحظوا أن مروان لم يأت وأخبرهم أخوه حسن أنه مريض ولا يستطيع المجيء، فأجرت المسابقة بين الاثنين نادو على سعد أولا، قام بواجبه على أكمل وجه واعتقد أنه سيربح دون شك كانت عيناه تلمعان تحت قوسي حاجبيه البارزين وطيلة ذلك الوقت لم يكن ثمة شيء غير تلك الشمس وذاك الصمت، عند مناداة السيدة إلينا لاحظ سعد ما لا تراه الأعين استسلم للحياة، صوت يصرخ فيه من داخل رأسه، شعر بالحياة تضربه مرة تلو الأخرى، صرخات عصافير ثاقبة ذات صوت غير واثق، اشتعلت نيران قلبه اليوم، أصبح فجأة حقودا ، كان سعد يحس بدمه يصعد حتى صدفيه ويضرب أطراف أذنيه، يا لظلمك أيتها القلوب العزيزة .

إن لم يكن إلى ما هو أسوأ من ذاك الشعور، تأتي لحظة يسمع فيها الشخص المزعزع أو المهان، خسارة العشرة هي خسارة المائة، لقد أعلنوا فوز إلينا ورددت قائلة:

- لا تنادوني ب «إلينا» نادوني ب «تينا» فإنني أبغض هذا الاسم المعتوه لأنه كان لجدتي، وأيضا أنا أنتظر هنا منذ ساعة لتعلنوا فوزي وبطريقة بشعة أنا ذاهبة للمنزل وداعا فعلت كل هذا لتزيد من غضبه ونظرت بكل غرور ووقاحة إليه وهي تبتسم، كان

الأستاذ طه قد رافقهم وسأله كيف أنها لم تدخل لإجراء العملية وفازت، وقال سعد:

- أنا الذي كرست حياتي من أجل الطب ومن أجل كل شيء لأصل إلى هنا، وأكون بينكم، حاربت كل شيء، رأيتها بأم عيني تدفع مبلغا كبيرا من المال لرئيس الأطباء التافه، حينها قال الأستاذ لسعد:

- إن الصبر قوة والقوة لا تعني أن تلك الأجلاف يحتلون العقول ويعبثون بالمشاعر، هناك أوقات نشعر فيها أنها النهاية ثم نكتشف أنها البداية وهناك أبواب نشعر أنها مغلقة ثم نكتشف أنها المدخل الحقيقي، فإذا أردت أن تعيش حياة سعيدة فاربطها بهدف وليس بأشخاص أو أشياء كتلك الوقحة إلينا.

انطلق الأستاذ إلى بيته، وبقي سعد يخمن في كلام ولم يجد له تفسيرا، إنها حقيقة جيدة، فسعد لا يعرف ما يمكنه تحقيقه وسارق البط يفضح نفسه بنفسه، فالحياة عند هؤلاء... هي الثروة الطائلة... هي الإقامة الفسيحة، فهم يظفرون بلعبة الحياة، ويقولون إن حل المشكلة هو حل عبقري بالفعل فابنتنا جراحة ماهرة، رجع سعد إلى كوخه الصغير حيث توجد أمه المريضة، لم يجد طريقة لكي يقول لأمه أنني فشلت بكل برودة وذهب كل تعبي في لا شيء، دخل للبيت فوجد أمه مستلقية في الفراش كالعادة لا تحسن... قالت الأم:

- أعلم أنك فشلت يبدو ذلك من ملامح وجهك الشاحب الذي يكاد ينخطف لونه، عانقها والدمع ينهمر من عينيه الذابلتين، كان يصرخ بأعلى صوته المتقطع المثقل بالأحزان والآهات، وما هذا إلا أزهار أما الثمار ستأتي فيما بعد...

في اليوم التالي كان سعد منهكا متعبا لم يرَ النوم وخارت قواه، كره كل شيء من حوله... جاء زين قائد الجمعية الذي يتولى الإنفاق على الفقراء في المنطقة، كان مهتما جدا بعائلة الخالة «فلة» كان يعلم بقصة سعد وأتى ليسأله عن نجاحه أو فشله وأحضر بعض المؤونة لهم، ولكن لم يجده هناك أخبرته أمه أنه كان معها في المنزل، وصارحته بأن سعدا لم يكن هكذا أبدا، لقد تغير ويقول إن المال سيد القيم وبه يتكلم كل شيء ولولاه يصمت كل شيء منذ أن أجرى تلك العملية، وأرادت أن يعثر لها زين على عمل لمساعدة ابنها وقال كيف وأنت مريضة هكذا.

في اليوم الموالي أتى زين ومعه خبر بأنه عثر على عمل شريف للخالة فلة، سمع سعد بالخبر وقال والغضب يكتسحه:

- كيف، كيف لأمي أن تعمل وهي في هذه الحالة؟ وهي لا تستطيع أن تنهض من فراشها حتى، سقط أرضا حتى جاءه إحساس بأنه ضعيف جدا، ولا يستطيع أن يتحرك، ساعده زين للنهوض.

- لا تستسلم معك فرص أخرى للنجاح أنا لا أعرف سعدا الجبان أنا أعرف سعد الذي لا يستسلم أبدا أنا بمثابة أبيك نزيم «رحمة الله عليه»، أما أمك التي سهرت من أجلك لكي تكون رجلا لا أكثر وترد جميلك لأمك، أعرف أنك قاسيت من معيشتك ومللت منها ولكن...

وانطلق سعد إلى شاطئ البحر حيث يوجد الهدوء، في هذا الوقت فلا يوجد من يذهب إليه، كان البحر أنيس وحشته وجليس أفكاره، ولكن الأفكار الجميلة اختفت، ففي ذلك الحين ومنذ اليوم ستأتي الأفكار الدنيئة الذميمة أو بالأحرى الأفكار الشيطانية.

أصبحت خالي الوفاض من الدراهم، الشيء الوحيد الذي يجعلني أعيش اليوم هو أمي، كانت الكلمات المعبرة عن الانتقام لسعد، حاولت آلاف المرات أن أقنعه ليعود للجامعة من جديد ولكن من دون أي جدوى ودائما ما كان يخبرني أسراره ولكنني أحسست أنه يخفي عني شيئا، لم أرد إزعاجه أكثر من ذلك، في اليوم الموالي تكلم مع المدير على أنه يريد المشاركة في مسابقة العام القادم ولكن دون اللجوء للكلية لأنه انزعج كثيرا من الأمر الذي فعلته تينا وأراد أن يخبر المدير بما جرى تلك الليلة من دون شك أن الأستاذ طه أخبره، فهو أيضا جزء من خططهم الماكرة ، لم يوافق المدير على هذا وقال :

- صديقك مروان طلب مني الشيء نفسه ولم أوافق، آسف يجب أن تدرس كما يفعل الآخرون وكليتي محترمة لا أسمح بأن يحدث هذا، آسف.

- لكنني.

- لا.

استعجب سعد لشفاء مروان بتلك السرعة، منذ شهر ونصف كان ملقى على الأرض لدرجة أنه لم يشارك في المسابقة، مع أن مروان كان من أحد الطلبة الممتازين في الكلية ولماذا طلب الطلب نفسه الذي طلبته من المدير؟ ربما كانت صدفة، كان سعد يبحث عن مروان لأن لهما الغاية نفسها ولكن كل محاولاته باءت بالفشل، لقد رحل من المنطقة كلها والجيران لا يعلمون عنه شيء، تجاهل الأمر واعتبر ذلك مضيعة للوقت أراد أن يبحث عن عمل مؤقت ولكن العثور على عمل شريف في البلدة أمر صعب، فقصة العمل قصة مؤثرة حدثت مع سعد شخصيا، بدأ بتذكر الماضي وقصة سيده ليث وهو سيد مصنع الخشب في المنطقة المجاورة وكان سعد يعمل عنده، السيد ليث أمضى أول اثني عشر عاما من حياته في مخيم بناء بحلول الوقت الذي قال فيه كلمته الأولى تعلم كيف يضع القرميد ويخلط الإسمنت أجبره أخوه الأكبر على العمل كعبد حتى قتله ليث في الأخير وهرب، أخوه الذي ربى ليثا وحيدا، فقد كان رجلا صامتا توفي أبوه وأمه في العشرية السوداء التي كانت سائدة في التسعينات وجعل ليثا أمانة لدى الابن الأكبر، ولكن أخلف الأخ بالميعاد كان عندما يعود من العمل يشرب كحولا باهضة الثمن ويترك الباقي من أغذية وحاجات أخرى ليتكفل بها ليث، ويذهب لينام فهو نادرا ما يتحدث مع ليث، الذي كان في السرير العلوي، وهكذا تعلم ليث بالكاد كيف يتدبر أموره كلها قبل سن السابعة، عندما كان ليث يعود من العمل لم يكن مسموحا له بمغادرة فراشه إلا بالذهاب إلى الحمام، كان مسموحا له بقضاء حاجاته مرتين يوميا، وفقط قبل التاسعة مساءً، الخشب الداعم للسرير كان يحدث صريرا عاليا كلما تحرك في نومه، أخوه كره ذلك الصوت. في إحدى المرات بعدما ضربه أخوه بشدة بسبب ذلك الضجيج تعلم ليث كيف ينام من دون أي حركة، مبقيا بجانبه زجاجة كحول فارغة في حال لم يتمكن كبح حاجته للتبول.

«لا تحدث المتاعب للآخرين» كان ذلك هو الدرس الوحيد الذي علمه إياه أخوه الصامت، منذ سن صغيرة، ليث بذل جهدا للتقيد بذلك الدرس، متعلما من أخطائه، كان لا يرى ولا لعبة واحدة على الإطلاق، أو بالأحرى لم يعش الطفولة التي يعتبرها الناس من أجمل الفترات التي مرت عليهم فهي مليئة بالسعادة.

هذا الدرس كان الهبة الوحيدة من أخيه، داخل عالمه الصغير كان أخوه بمثابة إله، ومهما تبلغ قسوة أخيه، كان ليث مصدقا أن أخاه يحبه، هذا التصديق كان نابعا من حقيقتين اثنتين، عندما كان ليث يبلغ الخامسة من العمر، أصيب بحمى فضيعة كادت تقتله، طوال الليل، بقي أخوه ساهرا يستبدل المناشف بأخرى جديدة، السبب الآخر كان أن أخوه لم يأمره ولا لمرة بالرحيل خارج المنزل، مع كل هذا كان ليث فخورا بهاتين الحقيقتين.

ذات مرة خاطبه أحد الحمقى الذين يعملون معه مستفزا له:

- غبي ... لم يطردك لأنك تجلب له المال، رغم أنه قد أبقى تلك الإمكانية بعيدا عن التفكير في أعماق ذهنه، إلا أن قلة اكتراث شاب أكبر منه عمرا قد أثار تلك الفكرة نادما أنه قد كشف سره.

- غضب ليث من نفسه كثيرا، كبرياؤه جرحت، واعتراه الغضب وهاجم الشاب، فالشاب كان دائما يسخر من الفتى الخجول، وعندما رد عليه، تملكه الغضب الشديد إلى درجة أن إفقاده الوعي لم يكن ليرضيه، داس على وجه الفتى وبصق عليه، وتلفظ بالضربة الأخيرة عندما كنت مريضا، أحد الجيران هو من اعتنى بك، فأخوك كان يشرب الكحول بمفرده كعادته، أنت كنت تهذي، لذلك لم تعرف بذلك، ففي تلك الليلة قد تشاجر ذلك الجار مع أخيك وقد سأل أخاك ماذا يفعل إن مات أخوه، دعني أخبرك ما الذي قاله أخوك؟ لا يهم لا أبالي إن مات، أسمعت ذلك؟

بينما ليث يستمع للشاب شاهد شيئا لا يصدق، شاهد أخوه وقد نظر إليه في عينيه، ولم يعره أي انتباه، ثم غادر وقتها، فالكون لا يأبه به، أخي لا يبالي إن عشت أو مت، بعبارة أخرى حياتي لا معنى لها، إذا عشت سأجلب له المال، وإن مت فإنني فقط سأوفر بعض المساحة، هذا كل ما في الأمر، أخي أخبرني ألا أحدث المتاعب للآخرين لكي يتجنب أي إزعاج له، لم يكن درسا لمساندة أخيه، لقد كان لمصلحته وحسب، في ذلك الدرس «الآخرين» كانت تعني أخي، لا ... لقد كانت تعني البشر.

في نهاية المطاف ثار الفتى، أخذ مطرقة قريبة منه وقتل أخوه بكل وحشية وكان يردد لقد استغليتني أخي استغلني من أجل مصلحته الشخصية، لقد كان ثملا لذا لم يستطع

الدفاع عن نفسه، هرب ليث من المنطقة كلها، وبعد تسع سنوات... أسس ليث مصنعا للخشب فهو الأكبر في البلدة المجاورة لنا، ليث رغب في إفساد حياة العالم بأكمله، كان سعد في الخامسة عشر من عمره عندما كان يعمل عنده، كان ليث يجعل من عماله عبيدا له، أما سعد فقد كان يعامله معاملة حسنة لأنه الأصغر بينهم، أتى يوم وقد قدم سعد نصيحة للعم ليث قائلا وهو خائف وبلهفة:

- لمَ يا عم تعامل العمال وكأنهم عبيد عندك، أليسوا بشرا مثلك، ولماذا تعاملني معاملة حسنة؟

غضب العم ليث واحمرت وجنتاه وقال في نفسه سأسرد له حكايتي ربما ستكون عبرة له في المستقبل، أحس سعد بحياته البائسة، من الطبيعي أن يعامل الناس هكذا فالرجل الذي يعامل الناس باحترام دليل على أنه تربى على الحب والخير، والرجل الذي يعامل الناس كعبيد دليل على أنه تربى على يد أحمق تعيس لا يعرف معنى الحب، دائما يسقط اللوم على من ربى، طلب أن يسامحه على وقاحته الزائدة.

- ولكن لم تجبني عن سؤالي الثاني؟

- خمن في الأمر لنفسك، وجد سعد الإجابة وأراد فقط التأكد من صحة كلامه، لأنه كان في العمر نفسه الذي غادر فيه المنزل وعاش عيشة صعبة مليئة بالحزن، إضافة إلى تعاسة الطفولة البائسة،

كانت الساعة الثانية والربع زوالا، كان سعد بجانب العم ليث يسانده في إنزال الخشب من الشاحنة، بينما هم كذلك، حتى شم رائحة دخان فقد كانت الجهة الخلفية للمصنع لا يرى عليها أثر، انطلق العم ليث لإطفاء الحريق مع أنه قد نبه سعدا ألا يدخل إلى هناك فالمكان خطر للغاية، ولكن سعد لم يبالِ ودخل، كادت خشبة محترقة أن تقضي عليه بألسنة نيرانها الحادة وكان يردد:

- شخص ما. أي شخص؟ لا يهم من يكون، أو ماذا يكون فقط فليأتي وينقذني.

حتى حماه العم ليث وخرج سعد بأمان بجروح بليغة أخذوه للمستشفى ومازالت إلى يومنا هذا ندبة في صدر سعد، توفي العم ليث وأصبح جزءا من الماضي قد تحول

إلى رماد، توفي في ظروف غامضة لا يعرفها أحد، بعد خروج سعد من المستشفى أراد أن ينتقم ممن فعل فعلته الوسخة، لقد كان شخصا ضعيفا نوعا ما وهو في سن السادسة عشر من عمره، وجد من يستند عليه وهو أهم شخصية للعم ليث، فابنته القوية المدعوة بتول تربت على الكراهية والحقد من طرف أبيها ما إن بلغت الثامنة عشر قدرت حكايته البائسة وأحبت أبيها رغم كل شيء وكان الشعور متبادلا، فتاة قوية في عالم لا يعرف قيمة نفسه ولم يكتشف قوته ومواهبه، لا وقت للحب، لا وقت للعب، الوقت كله للانتقام والثأر لأعز الناس لها، فتاة قوية التي روحها تتوجع من الداخل وتتظاهر أنها بخير من هنا بدأت حكاية هاته اليتيمة ترتحل على هذه الطريق أكثر إثارة للازعاج ومنذ هذه اللحظة فصاعدا ستمضي القصة من سيء إلى أسوأ، ذهب سعد للمنزل التي كانت تعيش فيه بتول لسؤالها حيال أبيها قائلا :

- نحن لا يمكننا التذمر على أية حال فلسنا من أسوأ الناس حظا، أحترم وجهة نظرك على أنك لا تحتاجينني ولن أجادلك حول ذلك، خطا خطوتين حتى ببتول تناديه.

- حسنا. هذه المرة فقط ففي الأخير أنت أعز أصدقاء أبي الذي لم يكن له أصدقاء حتى أمي توفيت عندما كنت صغيرة بسبب مرض الطاعون، لم تدم علاقتهما طويلا، لذا لم يرد أن يتزوج مرة ثانية ورباني على يده، هو الأم والأب والأخ والصديق وكل شيء، ابتهج سعد لسماع الخبر المفرح.

عندما كان خارجا من المنزل صادف العم زكريا وابنه خالد من المصنع الذي تجدد من طرف بتول وعمال جدد كان هؤلاء فقط من يعرفهم والأكثر من ذلك موظفون سامون في المصنع، عملت على وصية أبيها في تجديد المصنع وتعجب سعد لبقائهما في المصنع بعد كل الاحتقار والاضطهاد الذي كان يعاملهما به العم ليث، تجاهل الأمر واعتبر ذلك أمرا عاديا.

مضت خمسة أيام ولم يذهب سعد لمريم لكي يساعدها لأنه في تلك الفترة كان في المدرسة الثانوية ولا يوجد وقت كافٍ لذلك، وفي اليوم السادس كانت المفاجأة لقد وجد الشرطة على باب الآنسة بتول، حينها عرف أن بتولا وجدت القاتل والأكثر من ذلك بدون

مساعدته واستاء من الأمر، تجاوز عراقيل الشرطة ودخل بسرعة للبيت، لم يستطع سعد تمالك نفسه لما رآه أول مرة يرى جريمة بشعة كتلك، عذاب يستحق تعبيرا أكثر وحشية واستياء من ذلك، دخلت الشرطة مباشرة بعد أن سمعت دوي الرصاص اعتقلوا «بتول» وهي ملقية على الأرض مستاءة عن فعل ذلك، حكم عليها من طرف القاضي عشرين سنة أتى سعد مباشرة بعدما كان في المحكمة عند بتول ليسرد لي عما رآه كانت الأخيرة تعلم بأن العم زكرياء هو من أحدث الحريق لقتل أبيها وابنه خالد من ساعده على فعل ذلك ولكن لم تكن متأكدة، موظفون ساميون!

في أحد الأيام الممطرة وبالصدفة سمع أحد الموظفين زكرياء وابنه خالد يتحدثان عن الحريق وأرادوا أن يفعلوا الشيء نفسه مع الآنسة بتول وهناك بدأت ألسنة نيرانها بالاشتعال مرة أخرى فقد أخلت المكان بأكمله واستدعت زكرياء وابنه لكي تطلب منهما تفسيرا عن أمر قتل أبيها الحبيب الوحيد في عائلتها، بدأ خالد أولا في الكلام

- أترين أن أبوك شخص طيب ...لا. لا على الإطلاق أبوك كان يعاملنا وكأننا حيوانات ويطلب منا العمل الشاق المتعب -تدخل أبوه زكرياء -

- إلى متى كنا لنتحمل كل ذاك العذاب لو كنت أنت مكاننا ما كنت لتفعلي.

تعجبت بتول من وقاحتهما الزائدة التي لامثيل لها وكان الغضب باديا على وجهها، كانت تحمل المسدس وهي ترتجف من الخوف وكانت متحمسة من الانتقام لذا لم تندم على جريمتها مهما كانت بشعة وبدأت بالوجبة الرئيسية أولا وهي الأب زكرياء أطلقت الرصاصة الأولى في رجله اليمنى وأصبح يصرخ من الألم جنت بتول وكانت تقهقه طوال كل طلقة وتردد قائلة:

- لمَ أبي؟ لمَ لم أحظَ بالحنان كالكل؟ حتى دخلت أنا وجدت كلاهما موتى ولكنها طيبة القلب مع أنها تملك جانبا مظلما ولكن... صارت هذه القصة الآن طيّ النسيان.

عثر سعد على عمل في إحدى المقاهي البائسة، أنا لم أرَ هذا العمل مناسبا لسعد إطلاقا أخبرته بذلك ورد علي قائلا:

- إنهم يعاملونني جيدا وفوق كل هذا هم يعطونني أجرة لا بأس بها، مع أن العمل شاق هناك ولكن ليس باليد حيلة، أنا أفعل كل هذا من أجل أمي إنها مريضة ويجب أن أهتم بها مهما كلفني الأمر.

- احتفظ بأفكار رجل حرّ، إذا قمت باختيار هذا العمل القذر بإرادتك آملا في نتيجة جيدة أو مال باهظ، فيؤسفني أن أخبرك أنك اخترت الخيار الخطأ، ربما يبدو لك هذا العمل في البداية رائعا عندما تمضي الأيام الأولى لا بأس بها وتقضي بعض الأوقات السعيدة في صحبة صديقك حسان اللطيف، فلا تدع هذا يخدعك، فإذا كنت قد علمت أي شيء عن ذلك المكان فإنك تعرف بالفعل أن تلك الصداقة السارة التي تمر بها سرعان ما تنتهي بها إلى الطريق المأساوي نفسه.

تجاهلني سعد ولكن أحسست أنه يشعر بإحساس صادق مني، كان وراء كل هذا الفتى المسمى بحسان، فهو الذي ألح على سعد للعمل معه في المقهى الموجود بحي غير عادي نوعا ما، مع أن سعدا ليس راض بهذا العمل وفجأة أصبح صديقه المقرب يعرف حسان في كل أنحاء البلدة باسم الفتى المخادع ولقد حقق شهرة في هذا المجال، أما أنا لم أرد من سعد أن تتغير شخصيته، أنا كنت وسأبقى أفضل صديق له يقولون أن الصديق وقت الضيق هذا المثل ينطبق علينا أنا وسعد ولكن في الأيام التوالي أحسست أنه يبتعد عني شيئا فشيئا، أنا لم أعرف سعدا هكذا فهو تغير تغيرا جذريا، فهو يلعب الآن في لعبة بطلها الأسى والمتاعب لم أرد التدخل في شؤونه الخاصة فكل واحد منا يرى نفسه ذكيا لا أحد أذكى منه، قويا لا أحد أقوى منه، وسيما لا أحد أوسم منه، فهذا هو الإنسان بطبيعته الفطرية.. من يأبى اليوم قبول النصيحة التي لا تكلفه شيئا فسوف يضطر غدا إلى شراء الأسف بأغلى ثمن.

مضى شهر عادي على عمل سعد في المقهى وكنت أعلم أن طبيعة هذا العمل لا ترضيه حقا ولكن صاحب المقهى أصبح لا يكف عن التذمر طوال النهار وهو يصدر من وراء طاولته الأمر تلو الآخر بالانتباه وأخذ الحيطة لئلا يكسر شيئا من الأواني، وفي المساء يأتي ليطلب من سعد السماح، سيكون هذا أمر طبيعي بالنسبة لشخص

مسن، كالعادة سعد تعامل معه بلطف فهو طيب ولن يستغني عن صفته الجميلة، بعد عدة أيام أتت جماعة من الشباب لتعمل في المقهى بدت من الوهلة الأولى جماعة طيبة، فكان ترحيبهم حلو كما ظهر، اعتبروا سعد بمثابة أخيهم وهذا كله من الوهلة الأولى فالمظاهر خادعة وغادرة، صدق سعد كل قصصهم ولكن في الحقيقة هي جماعة منحرفة نوعا ما، في الأول أرادوا أن يقحموه في سرقة أموال السيد جميل فالوحيد الذي يعتمد عليه السيد جميل هو سعد رغم كل معاملته البائسة لأن سعدا يعرف كبار السن عندما يكبرون ويخرفون، يثق فيه لدرجة أنه أعطاه مفتاح الخزنة منذ بداية انتهاء شهره الأول في العمل فهو الوحيد الذي يعرف الاعتناء بالخزنة ولا يوجد لديه أبناء كان متزوجا في شبابه ولم ينجح زواجه البائس اكتشف أمرا سيئا في حياته وهو أنه عاقر، ولا يوجد شيء من الحماية في البيت الذي يعيش فيه فكل مرة تأتي عصابة تحط على البيت لسرقة شيء باهظ، من كثرة خوفه لم يبقَ له شيء قيم في بيته، إذن عملية السرقة كانت في المنتصف، ففي الخطة ثغرة واحدة وهي عدم قبول سعد المجيء معهم لسرقة الخزنة وأراد أن يبلغ عنهم الشرطة ولكن يا للبؤس الشرطة كسولة في ذلك الحي وخاصة في المساء لم يرد أي أحد على الهاتف.

في صباح اليوم التالي أتى الشباب بدون حياء أو أي حشمة هذا ما زاد من غضب سعد واستدعى السيد جميل وقال:

- سيدي أريد أن أخبرك بأمر مهم جدا حصل ليلة البارحة إذ... وتدخل هاتف لعين وأنهى الحديث

- لا تخبره لقد أخطأوا وخير الخطائين التوابون، أرجوك سعد هذه آخر مرة وهم يحتاجون للمال من أجل مساعدة أهلهم مثلك تماما فالحياة تتطلب عمل هذا، أرجوك أهذا هو جزاء عملي حين وظفتك في المقهى.

- إذن سعد أخبرني بالشيء المهم الذي وددت قوله لي!

- انسى الأمر ليس بالشيء المهم، تعجب السيد جميل، ابتهج البؤساء لعدم إخبار سعد للأخير.

يا له من صباح... يا له من حلم! وأنا أتذكر مرة أخرى الكابوس المزعج الذي راودني ليلة أمس، ولكن العجيب في القصة أن سعدا من النوع الذي لا يتذكر أحلامه، هو دائما ما يقول إنه لا يحلم ولكن هذا خطأ، فبمجرد نومك تبدأ أحلامك أخبرني سعد أنه رأى نفسه يركض في قرية والظلام دامس وهو خائف من صاعقة عظيمة، بينما هو في القرية إذ وجد أمام عينيه قبرا عتيقا وهكذا أصبح أكثر عرضة للخطر وللخوف وأخيرا أصبح محظوظا حيث وجد كهفا واختبأ فيه، كان هذا الكابوس يواجه سعدا دائما.

ارتدى ملابسه كالعادة للعمل، إذ كان ذلك اليوم من أبشع الأيام، بحيث خان سعد السيد الكبير في ذلك اليوم كنت أنا وسعد ذاهبان من الطريق نفسه أنا متجها إلى الجامعة الموجودة في ذلك الحي وكان أول يوم لي فيها وهو إلى المقهى ليعمل، إذ التقينا بحسان وقال المغفل وبجرأة:

- أنت حقا رجل لولا مساعدتك لنا لكنا الآن في الشارع دون أكل ومأوى.

- هذا واجبي، فالصديق وقت الضيق.

ذهب الأصدقاء الأغبياء إلى المقهى، أما أنا فتعودت أن أموت بسيف صمتي وألا أتفوه بكلمة زائدة وذهبت إلى الجامعة، وكان قراري صائبا عندما اخترت الأدب العربي، منذ نعومة أظافري وأنا أعشق الأدب، تماما كما ينبت العشب بين مفاصل الصخر، فأنا ترعرعت بين مفاصل الأدب وكنت أظن أن الجامعة تهتم بالأدب العربي ولكن لا، فاهتمامهم كله مع العلميين، قررت قرارا أحمقا وندمت على اختياري له.

على مسافة بعدها عشرة أمتار من المقهى تعجب سعد لأنه رأى المقهى مفتوحا مع أنه يملك المفاتيح ولكن...؟ لم يجدها في الجيب تعجب سعد وحدق في حسان والأخير تصرف ببراءة فالصديق المزيف كلما أعطاك سلب منك ما هو أغلى، وقال بخوف:

- أنا. أنا من سرقت مفاتيحك ليلة أمس ولكن نيتي حسنة، نظر سعد نظرة سوداء، وقحة، جريئة، قاتلة، إلى حسان وهرول إلى المقهى وفتحه إذ كانت المفاجأة.

أن تنقلب الأيام ليدرك أنه كان غبيا، كل ما وقع اليوم كان بالأمس شيء لم يستطع التحكم فيه، فهو طمع زائد عن حده إن صح التعبير، وفوق كل ذاك فإن الأيام لم تعوضه مكاسبه المادية بأرباح عاطفية، في النهاية وجد نفسه جالسا وحيدا، كئيبا.

لا وجود لفائز عندما تكون القرارات قد حسمت، أنا أعلم أن السلام لا يأتي إلا بعد سنين عابرة لا تمر علينا، كنت أنانيا ولم ترد مطلقا أن تحتاج لشخص ما ليساندك في محنتك، ماذا عن الآن؟

قلت للشمس خبئيني قد أتى القمر وأتى معه ظلامه الدامس ووحشته، قالت الشمس ببرودة:

- « إلى متى، إلى متى ستكون خائفا هكذا من أي شيء كان؟»

- « مادمت أنت بجانبي لن يصيبني أذى، أو أي مكروه كان، دائما ما أسمع في الليل خطى قريبة ويفر الباب من الغرفة دائما كالسحب المغتربة، دائما ما أجدك يا شمسي، مرت على بالي أقمار الطفولة خلف أسوارها سجن المواويل الطويل، ربيت عصافيري ونحلي ورأيت التاريخ بمرآتي، ليت مرآتي كانت من حجر لكي لا تنكسر مرة كآخر مرة، سأعد خسارتي، لا. لا أريد خبئيني يا شمسي بوحدتي، خذي مني المجد والسهر، فأعود طفلا رضيعا، لو أحصيت عدد النجوم التي كدست على إطار صورتنا الفاتنة التي كانت على حافة جدار المنزل، لكن أسبوع من الكبرياء، يوما ما لا تلوميني حين أستسلم للعالم كبيرا كان أم صغيرا، أعيش في الكهف وحيدا لا أبالي حين تأتي العواصف والأمطار، أتحمل كما يتحمل الراعي كذبة أساطير الأولين، أتحمل كما يتحمل هؤلاء همهم.

- لا..لا أستطيع أن أخبئك سأغيب، سألقي عليك السلام غدا عند بزوغ الفجر، لا تدق بابي مرة أخرى، فأنا نائمة على صوت خرير النهر في اشتعال اللهب سأصطاد سحابة عابرة عندما تسقط في حلقي ذبابة وسأنام عليها، سأدرب قلبي على النسيان كي يسع الورد والشوك، لا أحد يتغير فجأة ويستيقظ من النقيض للنقيض.

- كل ما في الأمر أننا في لحظة ما سنغلق عين الخيال ونفتح عين الواقع، فنرى بعين الواقع ما لم نكن نراه بعين الخيال، لا بد أن يعاش لا أن يتذكر ستتركينني في مهب الريح

أعيش ولكن أخشى، أخشى الشتاء وإن يكن سأراك في شكل ملاك ذو أجنحة خفيفة قادرة على اقتلاعنا من الأرض، ستأتي أحيانا في شكل عاصفة أتعرف فيها عليك من آثارك المدمرة، وأحيانا أخرى في شكل ندى ليلي، غيمة شاردة، حين إذن سأسقط مثلما يسقط حصان من جبل على هاوية، هل في وسعي أن أختار أحلامي، لئلا أحلم بما لا يتحقق.

استيقظ سعد من كابوسه البائس وهو في الزنزانة، كانت أول مرة ينام فيها سعد في زنزانة لعينة معدة للصوص وإخوانهم، لم يتخيل أن مكانا كذلك سيكون منزله في شبابه، سيلعب مستقبله على طاولة القدر.

دخل سعد وحسان إلى المقهى، اندهش سعد وقال:

- ما كل هذا المال وما كل ذاك الذهب اعتقدت أن كل ما في الأمر هو بعض الدينارات البائسة ولكن ما أراه الآن يعكس نظريتي.

- تعالوا انظروا ما كنا نحلم به قد تحقق فبعض من المجوهرات والقليل من المال وستعيش عيشة راضية.

عندما رأى سعد المال في الخزنة، كان فخورا بأن يرى الأضواء والظلال تتألق كذلك على الأفق، كان كل شيء يبدو له سهلا بشكل رائع، قوته، ذاته شجاعته، حلمه، هذا الجمال الذي كانت تسكبه له الحياة كأنه أكثر النشوات رفاهية.

وصرخ بصوت أجش «للحياة أيضا أشياءها الخاصة، إن لم أفعلها الآن لن تصح لي الفرصة بفعلها في المستقبل، أو أن أستغني عن الحياة، فأقبل بمصيري البائس هذا للأبد وأخنق في نفسي كل شيء وأتنازل عن حقي في أن أحيا وأن...»

وقد فكر سعد بإنفاق ذلك القدر من المال لن أكلف نفسي عناء ذكره، لمساعدة أمه وذلك بإجراء عملية جراحية على رجليها نسبة نجاحها كبيرة والشكوك ليست في محلها، والمسألة هي نعم أو لا، في ذلك اليوم كانت الفرحة تغمر قلب سعد فقد كان يحمل الحقيبة بيده ويتقدم في هالة هذا المساء مخترقا صوت خطاه الجاف على الطريق البارد وصرير قبضة حقيبته المنتظم وكأنه صادف رؤية صفحة جديدة في حياته،

في الطريق الفاصل بين منزله والجامعة التقيت بسعد وأخبرني أنه اليوم يوم حظي وأنا جد سعيد لأن أمنيتي ستتحقق، ذهب تفكيري إلى أن اللجنة غيرت رأيها ورأت أن سعدا يستحق أن يكون جراحا.

- لا، لا بل أمي ستتعافى بإذن الله... قاطعته بكلامي الجارح نوعا ما.

- كيف استطعت أن تجلب ذلك المال في هذه المدة.

- أنت من الأول كنت ضد هذه الفكرة، أصبحت لا أعرف الحقيقة أم الخيال، لا عدت أعرف هل أنت صديقي أم عدوي.

- ماذا،

أصبحت أنا عدوك؟ ولكن يا للخسارة.

وضحكت ضحكة صافية، امتعض منها امتعاضا كبيرا، فهو يكره الاستخفاف، نمت تلك الليلة وأنا أفكر في سعد وكيف استطاع جلب المال، فكنت في عزلتي أشد انفرادا من غريق على طوف في عرض المحيط.

استيقظت بسبب حالة هدوء مفاجئ وغير عادي، وأنا ما زلت بين النوم واليقظة وبدون أي سبب، وكأن أحدا أتى ولمسني وقال:

- استيقظ الآن.

في ذلك اليوم أحسست بخيبة أمل كبيرة، كنت أتوقع كل شيء من أي إنسان إلا سعدا فهو صديقي المقرب مع أنه أكبر مني سنا إلا أنه يفهمني فهو يرضي فضولي لا ذوقي، فهو يحب النظرة التي ترتسم على محيا وجهي.

شيء فيه تغير منذ طلته الأخيرة، إنه يبدو غبيا نوعا ما، لا يعرف ما الذي يفعله في المستقبل ولا حتى في الحاضر، جاعلا من نفسه دمية يتحكم بها صبي لا يعرف اللعب، دائما ما كان يقول لي سعد جرب الدنيا وإن لم تستطع جرب ما وراء ستارها، ولاتثرثر اجعل من الصمت صديقا لك فالصمت نوع من أنواع الفخامة، فهي ستزيد الثقة في نفسك كل ما أتقنتها أكثر تكون غامضا أكثر وعليك ألا تفتح فمك طالما لا تعرف كيف لك أن تغلقه.

سأبتعد عنك، لن أدع الكراهية تسود بيننا أكثر، ولكنني حين أعود إلى فراشي في نهاية كل يوم لا أذكر سواك مع أنني أتذكر سلبيات صداقتنا، أنا الذي جاهدت طوال حياتي أن أتجاهلك لأنني تخطيت كل هذا وذاك وتحملت كل نوباتي معك، أنا ممتن لك أو ليس الابتعاد عن شخص خوفا من خسارته هو بذاته الحب؟

توقفت الحياة عن إذهالي منذ أن غاب عن حياتي صديقي، كل شيء بات في عيني مكررا واعتياديا، أريد أن أستعيد نظرتي الأولى لكل الأشياء التي أدهشتني، كانت فريدة من نوعها فيها شيء من الجدية وشيء من الفكاهة، كنت أقضي أجمل الأوقات معه، لكن للأسف ربما قد نسي كل شيء.

ستصبح الأشياء موجعة أكثر حينها لا تستطيع التحدث عنها.

أختار أن أكون وحيدا في هاته الأجواء ولا أكون بديلا، مع أنه ليس مجرد صديق فقط، إنه مصدر الضوء في حياتي.

آسف يا صديقي إن انشغلت عنك مؤخرا ولم نلتقِ ونتحدث كثيرا، ولكني لم أتغير حيالك، أنا دوما أتذكرك وأحدث عنك روحي، فأنت صديقي الأول والأخير.

ففي هذا الزمن الذي نعيشه يا صديقي نستنتج أن الطيبة الزائدة قد تكون ثغرة قاتلة تكلفك الكثير من الندم فيما بعد.

فالدليل أنا كنت قويا ثم قويا ثم أقل قوة ثم بلا قوة ثم منهكا، ثم بدأت أشعر بالضعف ثم أصبحت ضعيفا، ثم أضعف ثم هشا ثم قاسيا كالموت.

كلما تذكرت أنني أخبرتك بأنك أعز أصدقائي، ماذا فعلت؟ ضحكت جدا عندما رأيتك تفرط بهذه الدرجة.

ذهب سعد إلى أمه وكان مترددا بأن يقول لها أنه قد سرق مالا، فقال وهو بمزاج غريب:

- أمي يا أعز الناس إليّ، لطالما كنت أريد أن أحقق أمنيتك وأرجع من خيراتك ذرة واحدة على الأقل، أنا في الحقيقة أريد أن أذهب إلى فرنسا ونجري عملية زرع القلب .

- لكن كيف، كيف لك أن تجمع كل هذا القدر من المال؟...

لم تحترم الأم وابنها لغة الحوار، قاطعها سعد بكلمات جارحة نوعا ما وهو نفسه لا يدري ما الذي يفعله طوال هذا الوقت وقال: اخرسي؟ سيكون من الصعب على فتى مثلي أن يجمع هذا القدر من المال، ولكن ليس باليد حيلة لقد استعرته من السيد جميل.
قالت الأم في صمت: لا أريد أن أحزن إذا جاءني سهم قاتل من أقرب الناس إلى قلبي. فسوف أجد من ينزع السهم ويعيد لي الابتسامة.
خلدت الأم إلى النوم وتجاهلت سعدا، لكن أي نوم سيأتي إذ صرخ ابنها في وجهها، الدموع تنهمر من وجنتاها لقد أزعجها سعد فوق الحدود وقالت في نفسها: «أهذا هو ابني، ما عدت أعرفه.
كانت الحياة مظلمة، وكنت جد مكتئبة يداي كانتا قويتان لكن ركبتاي كانتا جد ضعيفتين، كنت أتمنى أن أجد أحدا لأقف بين ذراعيه بدون السقوط على قدمي، لا أبالي من هو أو ربما كان لديه جانب مظلم لم أعرفه، أو كل الأشياء التي يقولها غير حقيقية. آه، حمدا لله لقد لمحت نورا أبيضا ناصعا لكن لم أدرِ إن كان قريبا أو بعيدا ولا أدري إن كان بإمكانه مساعدتي، كان المطر يتدفق بينما أنظر إلى وجهه كنت أبكي وأصرخ، ولكن البكاء والصراخ لا فائدة منهما إذا كنت في مثل هذا الموقف.
أغمضت عيني ومشيت في تلك الأمطار، لم أعرف الجهات الست سوى أن المطر لم يلمسني وكنت أردد:

- أستطيع البقاء، أستطيع أن أفوز في هاته اللعبة السهلة، أستطيع البقاء وأغمض عيناي أستطيع أن أشعر بوجود أحدهم هنا للأبد حيث شعرت بالموت، كنت أعرف هذه كانت المرة الأخيرة، لكنني لم أقطع الأمل لا بد أنني أنتظر شخصا ما لا أستطيع منع نفسي من الانتظار، الانتظار.
استيقظت الأم فلة وهي تسمع كلمة اخرسي، اخرسي، تدق في أذنيها كانت مفاجأة من سعد كيف له أن يرفع صوته على أمه، هذه ليست عادة وإنما أول مرة يفعلها، وهو يعرف عاقبتها، في الأخير هو ابني الغالي والوحيد من الطبيعي أن يغضب بهاته السهولة فالشباب في هذا السن يكونون هكذا، أحسست في ذلك اليوم أن ابني أهانني ولكن أدركت الأمر فجأة وعلى الكبير أن يفهم فهم خلقوا لنا ونحن خلقنا لهم.

في الأخير إنهما أم وولدها ولا أستطيع أن أحشر أنفي فيما لا يعنيني.

مع كل هذا تقبلت الأمر وأصبحت لا تبالي اتجاه ابنها البالغ وهي محافظة على مسافة الأمان بينهما وتحاول أن تطبق في الحياة إحدى الطرق العتيقة في تربية الأبناء الناضجين، تمنح ابنها حنانا زائدا عن العادة بعد مدة من الزمن حتى يعتاد على الوضع وتبدأ بسحب لسانه في صالحها، وبالتالي ستعرف كيف استطاع جلب المال، هي أيضا اكتشفت أن سعدا تغير كثيرا في هذه الفترة وأصبح سعد الأول من الماضي، سعد بالتأكيد أعمى هو الثاني الحب قلبه، وهو لا يفكر في أي شيء سوى سعادة أمه.

ولكن لا، ليس بهذه الطريقة نحب، لا نحب بمكر رجولة طاعنة وإنما نحب بإخلاص ولمسة حنان خالصة، فليس بهذه الطريقة نحب.

- سعد عزيزي أو لم تخبرني بأننا سنسافر لنجري العملية بعد فترة، أخبرني متى سيكون الموعد.»

تعجب سعد وقال في نفسه: «حمدا لله أنها وافقت على الأمر، لقد قطعت الأمل في الفترة الماضية.»

- لا أعرف يا أمي، لم أتشاور بعد مع الطبيب في خصوص العملية، ولكن أريد أن أسألك سؤالا كيف وافقت على الأمر بين الليلة والبارحة والأمر أنك كنت ضد الفكرة وبشدة والآن انقلبت رأسا على عقب! أنا لا أفهم، أنا لا أفهمك يا أمي، ما خطبك؟

- لا شيء فقط احترمت رأيك، إذا رأيت ذلك خاطئا فقرر الآن!

- لا، بالتأكيد لا كل ما في الأمر أنني أبحث عن سعادة العائلة، وسعادتك أولى.

كان من المستحيل أن يخبر سعدا أمه أنه سرق المال من خزنة السيد جميل، وكانت هذه المقولة من الأم «لعله يهتدي ويخبرني» وفي الحقيقة هي لم تؤمن بأنه قد استعار المال من سيد المقهى، حينها بدأت تشك في نظرياته، في جميع الحالات إنه فتى عنيد وعصبي ولن يكون من اللائق أن تراقب الأم المريضة ابنها البالغ.

بدأت تخطط الأم لمواجهة الموقف الحرج الذي وجدته في سعد، أحسن طريقة لتجعل الابن يغير رأيه، هو أن توافق وفقط.

بدأت القصة كلها عندما فاجأها السيد زين بعد أيام من سرقة المال، أخبرت الأم زين بالقصة من رأسها لساقها، تعجب زين هو الأخير بالأمر وقال:

- ولكن كيف، فالكل يتساءل.

هذا المبلغ ليس بالسهل جمعه، ينطق بالفم فقط، طلبت الأم من زين أن يذهب إلى السيد جميل ويتحاور معه بخصوص المال ولكن بشرط ألا يدري سعد بأي شيء، وافق زين على طلب الأم، وحين ذهب وجد المقهى مغلقا وكان ذلك اليوم هو الأحد من المستحيل أن يغلق أي مقهى في المدينة لأن الأحد هو يوم العمل بعد أخذ استراحة، كان زين ذو فطنة كبيرة وكان ذكيا مع نفسه.

بعد أن ذهب إلى المقهى الذي وصفته الأم له ولم يجد السيد جميل، قرر أن يذهب إلى منزله بمساعدة النجار الذي يعمل بجواره وقال:

- يا بني، عن ماذا تبحث أراك مشوش الأفكار ولا تجد الشيء المراد الذي أتيت من أجله، أتبحث عن شيء ما؟

حمدا لله أنني وجدت أحدا ليساعدني بعدما مللت واكتفيت من البحث عن السيد الذي لا أعرف ملامحه حتى.

- آه، أنا أبحث عن سيد اسمه جميل صاحب المقهى المجاورة لك، أتعرفه أو تعرف أحدا يدلني إلى منزله لأني لا أراه في المقهى.

- السيد جميل، أكيد أعرفه ولكني لا أراه قد فتح المقهى قبل أيام ولم أره منذ فترة ولم أسمع عنه أي خبر، لماذا تبحث عنه؟

- لا شيء، وإنما في خصوص العمل، أيمكن أن تدلني على بيته؟

- أنا آسف يا بني لا أستطيع أن أدع العمل وأذهب معك ولكنني سأرسل معك الفتى تيمور ليوصلك إلى حيث يعيش.

هذا الفتى تيمور يعمل مساعدا للنجار وهو طيب دون شك، لأنه لم يرفض أي طلب من زين

- أنت تعمل مجاورا للسيد جميل، بالتأكيد أنت تعرف من يعمل لديه وقال نعم أنا أعرف حسان

- إذن أنت لا تعرف سعدا، آه أتقصد الفتى الغامض أنا لا أعرفه ولكنني أراه جامد الشخصية وقليل الصداقات وهو أكبر مني سنا.

في تلك اللحظات، كان زين وتيمور قد وصلا إلى منزل السيد، شكره وقال بابتسامة:

- اذهب الآن، إن لم تصل بعد لحظات ستطرد من العمل.

- لا العم جد لطيف وليس معي بل مع الجميع وهذا ما جعلني أعمل عنده.

- أنت محظوظ جدا لأنك تتعامل مع أناس كهؤلاء فمجتمعنا اليوم لا يرحم فهم يستغلون الناس من أجل مصالحهم فقط، لا تثق بطيبة الشخص للوهلة الأولى فليس كل الناس طيبون، سيجعلونك ترى الوجه الطيب لهم وليس الوجه الأصلي، خذ هذه النصيحة واعتبرها من أخ كبير لك إذن وداعا وشكرا لك.

كان منزل السيد جميل غريبا نوعا ما، على عكس المقهى التي كانت أجمل وأفخم، فهو طويل وعريض والأكثر من ذلك هو يعيش لوحده.

قرع زين الباب لأول مرة فلم يصغِ له أحد، وقرع ثانية وثالثة، لكنه سريعا ما سئم من قرع الباب دون جدوى، وعندما أراد أن يذهب صاح أحدهم بكلمة:

- يا سيد. ياسيد انتظر قليلا.

التفت زين وراءه ظانا أنه سيد المقهى.

قال في ابتهاج:

- أأنت هو السيد جميل؟

- لا. لا لست كذلك ولكنني أحد الأصدقاء.

- للأسف إذن أنت لست هو، ألا تعلم أين يتواجد الآن؟ فأنا أحتاجه في موضوع هام

- أنا أتيتك لنفس السبب، فأنا أبحث عنه، فمنذ فترة لم يتواجد في الساحة ليلعب «الدومينو» أو الشطرنج فهو أمهر لاعب في الحي، ومن دونه لا يحلو لي اللعب.

-للأسف فغايتنا واحدة وهي البحث عن جميل، ونحن الاثنين لا ندري أين هو.

كل زين من البحث عن الأخير وهو في ذلك الموقف جاعلا رأسه في الأسفل، وعند ملاحظة ذلك الكهل لزين لم يستحمل فأراد أن يخبره بما سمع عن الإشاعة التي تدور بين الناس الآن حول السيد جميل.

- يا سيد، انتظر قليلا أريد أن أخبرك بشيء.

التفت زين وراءه منتظرا إجابة أو استفسار منه

- أجل، هل من مشكلة.

- رأيت تعاستك تلك ورأيت أنك تحتاج السيد جميل عاجلا غير آجلا، فقررت أن أخبرك عن مصير الأخير ولكن لست متأكدا مما أقول ولا تأخذ كلامي بعين الاعتبار.

- أصحيح ما تقول، إن فعلت ذلك لن أنسى خيرك معي أبدا أبدا أخبرني فقط.

- ولكن، هذا الكلام لا يقال هنا سأدعوك إلى المنزل لشرب فنجان من القهوة ونجتمع على الموضوع.

وصل زين مع صديق السيد جميل إلى منزله وكان الوضع هادئا بالنسبة لزين وكان فقط ينتظر الإجابة منه وكان طوال الوقت يتفوه بكلمات عشوائية.

قتلني الفضول لأعرف ما الذي سيقوله بخصوص السيد جميل، ربما وربما لكن كيف أعرف وأنا لا أعرف أي شيء، وقد أطال علي في صنع القهوة وكأن عياله ليست هنا وربما طلقها وربما ماتت وربما لم يتزوج بعد، وبدأت أؤلف الخرافات كعادتي لأضيع من الوقت قدر ما أستطيع.

وأخيرا دخل السيد إلى غرفة الضيوف ليقدم لي القهوة وصراحة كانت غير لذيذة مع أنه استغرق الكثير من الوقت، لكن رغم كل هذا لن أنسى خيره لي.

بدأ بالكلام وأصبح جلدي يقشعر من كثرة القلق وكان ذلك باديا في وجهي، قال:

- إن السيد جميل كان من أعز الأصدقاء لي وقد درس معي في الابتدائية ثم طردنا ونحن مازلنا في سن المراهقة، وكان أول همنا هو جلب المال لنعيش برفاهية ونتذكر إيجابيات ذلك السن المليء بالمتاعب، كنا أغبياء حتما لأننا كنا نتصرف بدون عقلانية وكان القلب يتحكم فينا في ذلك الوقت العصيب، إذ كنت غافلا عن حقك فستجد صحراء جرداء

أمامك، مع الوقت بدأنا نكبر شيئا فشيئا واستقبلنا العالم بطريقة بشعة غير مرحب بها، ولكن نحن وافقنا على ذلك الخيار، ليس باليد حيلة وعلى الرغم من أن السيد جميل كان رجلا متهورا بعض الشيء، فقد احتمل هذا في رحابة الصدر، ذلك بأنه كان يعرف طباع صديقه الغريب، كنت مراهقا يحب الحصول على أكبر قدر من الأصدقاء، كبرت قليلا فاكتفيت بما لدي، كبرت أكثر فبدأت بتصفية ما لدي، صديق واحد جيد يكفي فاعرف كيف تختار أصدقاءك، أو بالأحرى صديقك، فقالوا قديما: «أخبرني من هو صديقك، أخبرك من أنت» وحقا كلامهم صحيح، فمن الحكمة اختيار الصديق المناسب، والمشكلة الكبرى حتى وإن كان صديقك سيئا لا تستطيع أن تعرف ذلك لأنه صديقك، إن لم تمتلك صديقا تسب معه العالم والأشخاص وأنفسكم وحظكم كل يوم فأنت بلا أصدقاء، يجب أن يكون لديك صديقا تعترف بتواجده دائما، يجب أن يكون هناك من يشعرك بأنك في أمان، يجب أن يكون في حياتنا من يقول لا تحزن وإلا أحزننا شخص نستطيع أن نقول له أفادني التكلم معك كثيرا، محزن جدا من ليس لديه صديق مثل هذا، أعلم أنه نادر ولكن يجب أن تغرس في نفسك إيمانا بأنه سيأتي يوما ما وتلتقي به.

آه، لقد خرجت عن الموضوع أنا آسف، أعلم أنني سردت لك قصة حياتي أنا وصديقي الغالي.

- لا بالعكس تماما لقد كنت رائعا في إعطائي مجموعة نصائح في قصة رائعة، للأسف فأنا لا يوجد لدي صديق مثل الذي تكلمت عنه الآن، عفوا بل كان ولكن اختفى.

- لكنك نسيت أن تخبرني عن نفسك، من أنت وكيف تعرف جميل، وما الذي تريده منه ؟

- أنا كنت خادما في مقهى السيد جميل منذ سنوات وكان بمثابة كل شيء لي، كان صديقا وفيا، كان أبا حنونا، وكان سيدا لطيفا، لذا أردت أن أبحث عنه، ولم أجده، بعد أسبوع سأعود إليه لأزوره.

- آه، هكذا إذن لقد كنت خادمه، كنت أظنك عائلته أو ما شابه لأنه لم يحدثني عنك، قبل نصف شهر تقريبا لم نعد نرى جميل البتة، فربما الناس تراه وحيدا لكنه ظريف

عند رحيله لم يهتم أحدا فوجوده أو عدم وجوده لا يغير شيئا ، لقد بحثت عنه قدر استطاعتي لحد الآن لم أستسلم، حاولت وحاولت ولكن دون جدوى، منذ أسبوع ذهبت لزيارته في البيت كانت الساعة العاشرة صباحا وكنت أسير نحو منزله، في هذه الساعة كنت قد خرجت من السوق وكانت ليلة جميلة هادئة وباردة ولم أدرِ لماذا توجهت هناك وكأن قلبي أخبرني أنه هناك خطب ما مع أنني ذهبت عدة مرات ولم أجده ولكن ذلك اليوم كان مختلفا عن كل الأيام الخوالي، لقد وجدت الباب الرئيسي للمنزل مغلقا وأما بالنسبة للباب الخلفي فكان مفتوحا، لقد تعجبت صراحة لقد وجدت رسالة غريبة في مدخل الباب ،كنت قد أحضرتها وأغلقت الباب ذهبت للمنزل مباشرة لقراءة الرسالة، كانت هذه أول مرة يترك جميل رسالة، فهو ليس من هذا النوع إنه يأخذ موعدا إذا تحدث مع أحدهم، دقيقة وسأحضرها لك كي تقرأها.

لقد أطال علي كثيرا ولكن عندما يكون ذلك في صالحي لا أبالي فهناك شيء واحد أطمح له هو ألا يكون لسعد دخل في الأمر فهو مجرد خادم وأتمنى ألاّ يكون له أي دخل في هذا أو ذاك، وأمه المسكينة التي كرست حياتها من أجل تربيته وهذا واجب كل أم، فمصلحة ابنها هي الأولى.

كانت قد جاءتني مكالمة طارئة من زوجتي

- ألو، زين تعال بسرعة فابننا عبد الكريم مريض للغاية لقد أتته حمى مفاجئة، لذا تعال بسرعة وأحضر معك سيارة أجرة فأنا لا أستطيع أن آخذه بمفردي، لذا أسرع رجاء.

- يا إلهي، منذ ساعتين تركته بأفضل حال أمن المعقول فجأة أن يصاب بالحمى! حسنا، حسنا أنا آت

يا لسوء الحظ، لم يمرض قبل سنتين والآن أصابته حمى فجائية أنا لا أصدق.

لم أستأذن من صديق السيد جميل في الخروج من منزله لم أكن لائقا نوعا ما وهذا يجعل من الأخلاق دنيئة وسيفهمني بطريقة أو بأخرى، فهو سيد حكيم من الأجمل أن يفهمني ويستفسر مني هذا لأني كنت في عجلة من أمري، وهذا فتاي الوحيد من الطبيعي أن أفعل هذا.

عندما وصلت إلى المنزل ومعي سيارة الأجرة قرعت الباب عدة مرات ولم يجب أي أحد، حين إذن تذكرت أن المفتاح بحوزتي فتحت الباب وناديت ولم يصغِ لي أحد، كنت قد أطلت على سيارة الأجرة فذهب وتركني.

بدأت أسئلة تدور في ذهني ربما ساءت حالة عبد الكريم وأخذته سيارة الإسعاف إلى المستشفى الكبير في البلدة، فأنا متشائم كثيرا.

حتى وإن ذهبت أو ساءت حالته فيجب أن تترك رسالة أو ما شابه، ماذا لو كانت هناك مصيبة، تحت سقف المستشفى وأنا هنا مكتوف الأيدي؟

لا. لا أعرف أي معلومة عنهما.

أنا رخو، ضعيف، أنا عاجز عن فعل أي شيء، ولا أدري أين تأخذني قدماي.

ففي الشارع يتبادل شابان على سبيل المثال الثرثرة وفي الثرثرة ألفاظ بذيئة جدا... بذيئة لدرجة أنها جعلته يبتسم ابتسامة صافية، مجنونة، لم يعد ثمة شيء قادرا على جعله يندهش أو يتوجع، يشتهي لحظة من الألم الحقيقي، الخام، الصادق، الصافي.

يشتهي عاطفة لا يفلسفها، مرارة، حزن، ألم، نشوة، اشتياق.

زين في الثلاثين من العمر في سن كهذه يمكنك أن تعد نفسك محظوظا عندما تجد شقة واسعة مريحة وتتزوج امرأة جميلة وتعمل عملا شريفا في الميناء القريب من المنزل، وترزق بطفل وسيم بلا عيوب خلقية وأنتم عائلة بصحة جيدة

هكذا كان يفكر زين ناظرا للسماء، ظلال الشارع المتراقصة تلهو وتتسابق هناك، كأنما هي الأشباح قد بدأت رقصتها المخبولة.

يصغي لأنفاسه، لنحيب المرأة الباكية الحزينة على...، وقد دست ذراعها تحت الوسادة كأنها وسادة أخرى.

يا معذبي. أين عقلي عندما يبدؤون في جراحات استئصال العقل، فلسوف أكون أول من يتطوع.

تقولون إنني بالغت في قلق زين على ابنه وزوجته، ولكن لا هذه الحقيقة فزين يحبهما أكثر من نفسه وإن مسهما شر يندم.

ذهب للمنزل بعد طول انتظار وخلد للنوم وهو يفكر بشأن عائلته الصغيرة ظل زين مغمض العينين وهو يرتجف ومن جسده تخرج اهتزازات خفيفة دلالة على الخوف، لقد كان كابوسا مريعا بالنسبة إلى عائلته، لا أريد أن أتدخل في شؤون العائلة فهذه خصوصيات وأنا أحترمها.

بعد أن فتح عينيه لم يصدق ما الذي يراه، ابنه عبد الكريم يداعبه وهو نائم، ذهب بسرعة وفرحة ولهفة ليعانقه بشدة وشرع بالبكاء من شدة الفرح نوعا ما.

هنا بدأ زين بالمبالغة في خصوص هذا وبدأ يسأل بانتباه محافظا على تركيزه وانتباهه وقلقه، فالرجال هنا لا يستطيعون التحكم في قلقهم لأتفه الأسباب يولد أكبر المشاكل قال لها بكل أدب ورقة:

- أين كنتم لقد كنت مشوشا عليكم، أتيت هنا وأحضرت معي سيارة أجرة ولم أجد أي منكما لمَ لم تنتظريني حتى آتي، لقد كنت حقا قلقا عليكم

- ليس باليد حيلة بعد أن تأخرت، جاء سعد يبحث عنك في خصوص أمر ما، اغتنمت الفرصة وطلبت منه أن يأخذني إلى المستشفى فحالة عبد الكريم لم تكن تسمح له بالتأخير كثيرا، وقال الأطباء لو تأخرتم قليلا لكان عبد الكريم في حالة سيئة الآن، أنت تعلم أن سعدا لوهلة كان قد أصبح طبيبا لذا لقد سوى مشكلة التنفس لدى عبد الكريم فهو يتقن كيفية عمل الإسعافات الأولية، لولا سعد لم أدرِ كيف أتصرف، وفوق كل هذا قد دفع مصاريف المستشفى ومصاريف الدواء وسيارة الأجرة، إنه حتما ولد بار.

- حفظه الله وستره، فهو ذو أخلاق طيبة لم أكن أتوقع أنه سيأتي اليوم لأنه دائما مشغولا ولكن حتى وإن كانت حالة عبد الكريم سيئة فكان من الممكن أن تتصلي بي، فلم أتلقَ ولو اتصال منك، أمن المعقول هذا؟ لقد جننت بالكامل، لقد كنت خائفا عليكما من مكروه، وبدأت أفكر في سلبيات الموضوع، كنت قد ذهبت إلى المستوصف القريب من الحي ولم أجدكما.

- لقد ذهبنا إلى المستشفى الكبير في البلدة وكانوا يحسنون التصرف، أعد ما قلت أنا لم أتصل بك لقد إتصلت عدة مرات ولم تجب ولا لمرة، أنا كنت مشوشة عليك راقب هاتفك جيدا ربما فيه خلل ما.

بعد أن بحثت في جيوبي، لم أجد الهاتف فكان أمرا محيرا، أين تركت الهاتف يا ترى فالبارحة لم أذهب لأي مكان سوى...

آه، لقد تذكرت أخيرا صديق السيد جميل ربما نسيت هاتفي هناك ولم أشعربذلك، في تلك اللحظة تذكرت أمرا هاما غير الهاتف وهو الرسالة تذكرت آخر حوار دار بيننا، كنت قد خرجت من المنزل ولم أستأذن منه حتى، يا للوقاحة كيف لي أن أفعل ذلك مع رجل مسن، وأنا أعلم أنه يسيء التفكير في هاته الأمور.

التكبر والوقاحة والغرور كل هاته الصفات سأفكر فيها لو كنت مسنا بتصرفي القاسي هذا.

كان الوقت غير مناسب لزيارته، لأن الدنيا كانت ظلام وليس من اللائق الذهاب إليه الآن، ولقد تركت الأمر للغد، لقد جاء ابني عبد الكريم مسرعا إلي وهو يقول:

- أرجوك يا أبي اسرد لي حكاية أرجوك

كان ابني ذكيا جدا لدرجة أنني لم أقص عليه ولو لمرة بعد السادسة من عمره حكاية أطفال، بل كان عقله يستوعب الرواية القصيرة.

بعد إلحاحه لي وقررت أن أحكي له حكاية ولم أعرف ما الذي سأقرأه له فأنا لدي الكثير من القصص وجاءت في بالي قصة البنفسجة الطموح لجبران خليل جبران.

كانت في حديقة منفردة بنفسجة جميلة الثنايا، طيبة الرائحة، تعيش قانعة بين أترابها، وذات صباح وقد تكللت بقطر الندى رفعت رأسها ونظرت حواليها فرأت وردة تتطاول نحو السماء بقامة هيفاء، ففتحت ثغرها وقالت متنهدة:

- ما أقل حظي بين الرياحين! وما أوضع مقامي بين الأزهار! فقد خلقت حقيرة صغيرة أعيش ملتصقة بأديم الأرض ولا أستطيع أن أرفع قامتي نحو السماء أو أحول وجهي نحو الشمس كما يفعل الورد.

سمعت الوردة ما قالته جارتها البنفسجة فاهتزت ضاحكة وقالت:

- ما أغباك بين الأزهار! فأنت في نعمة ولكنك تجهلين قيمتها لقد وهبك الله من الطيب والظرف والجمال ما ليس لكثير من الرياحين فاتركي عنك هذه الميول الجامحة

وكوني قنوعة بما قسم لك واعلمي أن من خفض جناحه رفع قدره وأن من طلب المزيد وقع في النقصان.

- أنت تعزينني أيتها الوردة لأنك حاصلة على ما أتمناه أنا وأنت تغمرين حقارتي بالحكم والمواعظ لأنك عظيمة

سمعت الحديقة ما دار بين الوردة والبنفسجة فاهتزت مستغربة ثم قالت:

- ماذا جرى لك يا بنيتي البنفسجة؟! لقد عهدتك لطيفة بتواضعك عذبة بصغرك أتراك استهوتك المطامع القبيحة أم سلبت عقلك العظمة الفارغة؟ أنت لا تدرين ما تطلبين ولا تعلمين ما وراء العظمة من البلايا الخفية فلو رفعت قامتك كما تودين وأبدلت صورتك وردة لندمت حين لا ينفع الندم.

- دعي كياني يتحول إلى وردة مديدة القامة مرفوعة الرأس وعندها لا آبه لما يحدث لأنه من صنع إراداتي

وسرعان ما تحولت البنفسجة إلى وردة زهية متعالية فوق الأزهار والرياحين ولما جاء عصر ذلك النهار تلبد الفضاء بغيوم سود وهاجت سواكن الطبيعة فأبرقت وأرعدت وأخذت تحارب تلك الحدائق بجيش من الأمطار والرياح حتى كسرت الأغصان واقتلعت الأزهار الشامخة ولم تبق إلا على الرياحين الصغيرة التي تلتصق بالأرض أو تختبئ بين الزهور ورفعت إحدى صغيرات البنفسج رأسها فرأت ما حل بأزهار الحديقة وأشجارها من دمار فابتسمت فرحة وقالت لرفيقاتها:

- انظرن ما فعلته العاصفة بالرياحين المتشامخة وقالت بنفسجة أخرى:

- نحن نلتصق بالتراب لكننا نسلم من غضب العواصف والأنواء وقالت بنفسجة ثالثة:

- نحن حقيرات الأجسام غير أن الزوابع لا تستطيع التغلب علينا ونظرت ملكة البنفسج فرأت على مقربة منها الوردة التي كانت بالأمس بنفسجة وقد اقتلعتها العاصفة فباتت كقتيل أرداه عدوه فقالت لرفيقاتها:

- تأملن يا عزيزتي هذه البنفسجة التي غرتها المطامع فتحولت إلى وردة لتتشامخ ساعة ثم هبطت إلى الحضيض فليكن مشهدها عبرة لكل معتبر .

عندئذ ارتعشت البنفسجة المحتضرة واستجمعت قواها الخائرة وقالت بصوت متقطع لا يخلو من لهجة تدل على الطموح والافتخار:

- لقد عشت حياة الوردة ساعة كحياة الملكة وقد مكنتني من النظر إلى الكون وملامسة النور فهل بينكن من تستطيع ادعاء هذا الشرف؟ ثم لوت عنقها وبصوت لاهث قالت:

أنا أموت الآن وفي نفسي مالم يكن في نفس بنفسجة من قبل أموت وأنا عالمة بما وراء المحيط المحدود الذي ولدت فيه !! ثم أطبقت أوراقها وارتعشت قليلا وماتت وعلى وجهها ابتسامة كمن حقق أمانيه في الحياة ابتسامة النصر والظفر.

لقد كانت قصة رائعة، لكن للأسف كان عبد الكريم غارقا في أحلامه منذ زمان.

يا للعار على أولاد زمننا لا يستمعون للقصص المفيدة رغم أنهم يلحون عليها

قلت لزوجتي أنني نسيت هاتفي في بيت صديقي سأذهب لأحضره وأسوي بعض الأمور وآتي.

- حسنا، نسيت شيئا، لقد كان سعد يبحث عنك اذهب لزيارته وتشكره عما فعل ليلة أمس، واطمئن عن الخالة فلة، ولا تنسَ أن تدفع المال لسعد حتى ولو لم يوافق على هذا أعطهم للخالة.

- حسنا، حسنا لن أنسى ما قلته لي الذهاب لسعد، شكره، أدفع له المال، الاطمئنان على الخالة فلة وداعا سنلتقي في المساء.

اليوم السابع من أغسطس، وتحت المطر الذي كان ينهمر بغزارة خرج الصف الأول من السجناء من «تشيتا» تحت إمرة ابن أخ « ليبارسكي ».

والصف الثاني الذي كان يقوده الجنرال بالذات، بدأ سيره، بعد اليوم التالي عندالفجر، وكان المطر قد توقف عن الهطول، ولكن الأرض كانت مبللة وموحلة، والرياح العنيفة تدفع الغيوم عبر الأفق البعيد.

ونيقولا، الذي كان بين مساجين الصف الثاني بدأ هو يمشي متباطئا، والرياح الدافئة تلفح وجهه وقد انتابه شعور بالرضا شائب بالمرارة من هذا العنف الذي يتجاوب تماما مع اضطراب وصخب إحساسه وعواطفه.

ووراء صف المشاة الذي كانوا يسيرون متذمرين وهم يتخبطون في الوحل، كانت تسير العربات التي تحمل المؤن والأمتعة، عربة القيادة والعربات التي تقل السيدات وكانت «صوفيا» والسيدة « فونفيزين» في إحدى تلك العربات المغطاة بالمشمعات، التي كانت تتأرجح وتتمايل بين الحفر والأخاديد، الكثيرة في ذلك الطريق الترابي، وفي كل لحظة كان « نيقولا» يلتفت آملا أن يلمح زوجته عبرإحدى فتحات غطاء العربة.

وعلى بعد أربعة كيلومترات تقريبا، كان على الموكب أن يعبر نهر «الأنفودا» الذي كان في حالة فيضان، بسبب هطول الأمطار الغزيرة... {من رواية سيدات سيبيريا}

كنت قد وجدت الباب مفتوحا، دخلت ولم أرد مقاطعته لأنه كان يقرأ رواية على ما أظن ولكنه قد أحس وذلك من خطواتي العشوائية غير المنتظمة.

لقد كان هذا ثاني أمر وقح فعلته أمامه، وهو التجسس، من الوقاحة أن تدخل منزل دون أن تقرع الباب.

لقد قال فجأة:

- تفضل، سأطهو لك الشاي هاته المرة، لأنك في المرة السابقة لم تشرب القهوة، كان مذاقها بشعا أليس كذلك؟ مع أنني أحضرتها من باريس، هكذا يحبها كبار السن الفرنسيون بدون سكر وثقيلة، كنت أعلم أنها سوف لن تعجبك ولكن قلت في نفسي، سيجرب شرب شيء جديد مختلف عن العادة، كنت أظنك شغوفا بالجديد لأنك ألححت على قراءة الرسالة التي أخبئها عندي، وإن لم يكن كذلك فإنها لا تخصك...

قاطعته بأدب:

-لا. لا أنت لم تفهم الوضع، كنت أعلم أن كبار السن يفهمون الموضوع بتلك الطريقة ولكن لا، لقد ذهبت لأنني تلقيت اتصالا هاتفيا عاجلا من زوجتي، وقالت فيها أن ابننا مريض للغاية لقد أصيب بحمى مرتفعة، وكنت قلقا جدا عليه لذا لم تتسنَ لي الفرصة لأستأذن خروجي من عندك، أما بالنسبة عن وقاحتي وهي عدم قرع الباب فلم أرد أن أزعجك أو بالأحرى لم أرد مقاطعتك على القراءة، السبب الرئيسي لمجيئي اليوم هو الاعتذار منك عن وقاحتي الزائدة والسبب الثاني هو لقراءة الرسالة، والسبب الثالث

هو لأخذ هاتفي أما بالنسبة إلى القهوة أنا فعلا لم أحبها، حقيقة فهي بشعة، وأما بالنسبة للفضول فأنت مخطئ، لأنني فضولي أكثر من اللازم وهاته الصفة التي أكرهها في نفسي، وأما بالنسبة للرسالة فهي تخصني.

لقد ابتسم ابتسامة صافية، وقال:

- أرأيت أنت لم تفهمني حتى، وتقول فوق هذا المسنين يفهمون بتلك الطريقة، لا أدري ما هي، أي سخافة هاته؟ أنا أقدر اعتذارك وأقدر ظروفك، فكلنا هكذا، فلو كنت أنا لفعلت الشيء ذاته الذي فعلته معي، لم تكن وقاحة أو تكبر أو شيء من هذا القبيل، أما بشأن الكلام الآخر الزائد، كنت أمزح فقط، فلقد اندهشت من إجابتك المطولة، لقد اتخذت ذلك بجدية يا بني، لم أتوقع منك ذلك.

لقد كان ذلك جواب كلا الطرفين ولكن الشيء المهم هو الرسالة المخبأة عند صديق السيد جميل.

كان شيئا غامضا بالنسبة لي في المرة الأولى ويا ليته ما قرأها لكي يحدث ما حدث.

كان صديق السيد جميل ليس واثقا من إعطاء الرسالة إلى زين البتة، لذا كان يتأكد بنفسه وكان يرى ذلك واضحا في عينيه.

- لقد نسيت شيئا، لم أحضره لك ليلة البارحة، الرسالة كنت قد وجدتها في درج المكتب.

- أصحيح ما تقول، أنا أتلهف لقراءة تلك الرسالة المخبأة ولكن في الأول يجب أن أتأكد من صحة كلامك، لأنني لا أثق فيك الآن، ولا توجد أي إشارة لأثق فيك وأعطيك الرسالة.

-كل الذي تقوله كله صحيح، فمن المحال أن تثق بشخص لا تعرف أصله وفصله، فأنت إنسان حكيم وأنت الآن تتحدث مع شخص نبيل وصدوق، وإن وثقت بي فلن أجعلك تندم، بالعكس سأجعلك تفتخر بي أقدر هذا الموقف الذي أنت فيه فتماما مثل ما حصل مع الثعلب والدجاجة حين قرر الثعلب خداع الأخيرة بأن يجعلها تنزل من أعلى الشجرة بهدف أن الحيوانات كلها قد تصالحت بعد أن كانت في ذلك الخصام العنيف ما الذي جعلها تصعد أعلى الشجرة خائفة من الحيوانات المتوحشة.

فلا توجد ثقة متبادلة فقال لها:

- أيتها الدجاجة، أما زلت تحت الشجرة خائفة من طعن الحيوانات لك؟ ألم تسمعي بالخبر الجديد الذي انتشر عن الحيوانات؟ فهو أمر هام يجب أن تعرفي ذلك وإن لم تريدي ذلك فلك هذا.

- آه، صحيح وما هذا الخبر الهام الذي انتشر أخيرا وأنا بلا دراية مع أنني لا أنزل من أعلى شجرة في القرية، أمن الممكن ألا أكون بلا دراية لقد أقرتها اليوم فقط جلالة الملكة اللبؤة فأردت إخبارك، وهذا فقط لأننا أصدقاء مقربين، لذا انزلي ما الذي تنتظرينه.

الغريب قالت واستعدت للغناء:

- لمَ تحاول، لمَ تحاول خداعي بهذه الطريقة الغبية مثلك؟ ألم تعلمك أمك تقنية الذكاء، أو إن لم تكن فهناك تقنية استخدام العقل آه، انتظر قليلا ألم تقل إن الحيوانات تصالحت كلها، وأنا الوحيدة التي لا أعلم بهذا، ولكن قد ظهر صديق آخر لا يعرف على الأرجح، أليس ذلك الكلب الذي هناك فهو يجري بطريقة غير عادية، وكأنه وحش.

نظر الثعلب خلفه وهو متعجب، ما الذي أتى بالكلب اللعين ألم يقع في الفخ الذي نصبته له منذ قليل، فلاحظ هو الآخر أنه يجري بطريقة وحشية، كان الثعلب خائفا ومندهشا لذا هرب وبكل سرعة لديه قالت الدجاجة:

- ألم تقل إن الحيوانات تصالحت؟

- انسي الأمر فهذا الحيوان لا يتعلم

- لكن أتدري أين تكون المشكلة، المشكلة هي أن الرسالة ليست موجهة لا لي ولا لك، وإنما لشخص آخر، لذا لم أقرأها حتى أنا لأن جميلا قد كتبها له خصيصا فلم أستطع أن أقرأها.

- إذن هكذا القصة، أتعلم لمن كتب السيد جميل الرسالة، لمن موجهة يا ترى ألا يوجد اسم يدلنا على ذلك، أجل لقد كان هناك اسم على ما أعتقد سعيد أو شيء من هذا القبيل، الشيء الوحيد الذي استطعت معرفته، هو أن هذا الشخص الذي كتب له الرسالة هو شخص مهم جدا بالنسبة لحياة جميل، وهو يأخذ مساحة من احترامه وحبه وثقته.

سأسمي ذلك وقاحة إن قرأت تلك الرسالة، فليس لي الحق بقراءتها في الأول قتلني الفضول وأردت فتح الرسالة وقراءتها، حين لم أجد جميل وأي أثر يدلني على ذلك ما عدا هذا الحل، لذا أنا أبحث عن هذا الفتى على ما أظن هو يعمل لديه في المقهى، كنت قد زرت جميلا من قبل في المقهى وعلى ما أعتقد أنني رأيت ذلك الفتى.

انخطف لون زين الطبيعي، فأصبح شاحب اللون فجأة في دقيقة، عندما سمع صوت سعد لم يعرف أي شيء عن الكلام الذي زاده بعد قول هاته الكلمة، قال في نفسه:

يا ترى، ما دخل سعد في موضوع كهذا، فالرجل لم ير له أثر فآخر مرة رآه الناس كانت فترة بعيدة قبل أشهر وهذا ما يجعل كل الشكوك في صالح سعد.

- أتعلم، لا داعي لإحضار الرسالة، فأصبحت الآن أعرف أن الرسالة ليست موجهة لي، ظننت في الوهلة الأولى أنها لي ولكن لا أعرف هذا الفتى الذي ذكره السيد جميل في الرسالة، لذا أنا آسف على كل التصرفات الوقحة التي قمت بها اتجاهك.

- استسلمت بهاته السهولة، أو لم ترد أن تبحث معي عن جميل، خيبة أمل مجددا؟

- لذا قلت لك ألا تثق في أحد بسهولة، لا تنسَ نصيحتي لك، حسنا. آه قد نسيت هلا أحضرت لي هاتفي كنت قد نسيته عندك ليلة البارحة، رجاء.

- حسنا، سأحضره لك في الحين، نسيت أين وضعته، دقيقة لأبحث عنه ثم آتي.

لقد قال زين في نفسه وهو جالس على أريكة الصالون:

لم تكن تلك الإجابة التي أبحث عنها، لقد أخطأت في الكلام كيف لي أن أقول هذا الكلام.

بعد غياب، أتى السيد وأحضر معه هاتفي، لقد أعطاني إياه، شكرته ثم قلت باحترام:

- شكرا لك على كل ما قدمته لي من معلومات عن السيد جميل وعن القهوة والشاي أيضا، كانا لذيذين، فأنا ذاهب الآن وأرجو من القدر أن يلاقينا مرة أخرى وداعا.

- انتظر لحظة!

التفت ورائي، راجيا من الله ألا يسألني سؤال عن سعد أو عن الرسالة وقلت في نفسي:

ما الذي يريده مني يا ترى؟

- ألا تظن أنك أخذت شيئا! شيئا يخصني؟

وفي تلك اللحظة قد توقف قلبي...

- نعم، أهناك مشكلة فأنا على ما أظن لم أنسَ أي شيء، أليس كذلك!

- لا لقد أخذت شيئا يخصني، أجل إنه قلمي، قلمي الذي تركه لي أبي كميراث واحد، أظن أنه أعجبك؟

- نعم كثيرا، خذ أنا آسف.

- إذن طريق السلامة، تصل سالما غانما إلى البيت إن شاء الله، سأراك.

حمدا لله أنه لم يطل معي الحديث، لكنت قد أخطأت في الكلام كالعادة، كنت في طريق عودتي إلى بيت الخالة فلة أفكر فيما سأقوله لها بعد طول غياب وأنا لم أعرف شيئا حتى الآن، كل ما أعرفه هو أن السيد جميل مفقود، وقد ترك رسالة هامة إلى سعد، والباقي لا يعرفه إلا هو، سأخبره بهاته الأشياء أم لا، لقد خطرت لي فكرة، ربما تكون صحيحة بشأن الرسالة.

أو ليس سعد قد استعار مبلغا ماليا من السيد جميل؟ وقال إنني سأرجعه له بعد فترة طويلة بالتقسيط، هاته هي إذن لقد كتب السيد جميل أنه قد سمح لسعد عن المال الذي استعاره منه، وربما يكون السيد جميل ميتا الآن أو ما شابه، لذا غاب عن الأنظار لمدة طويلة.

ولكن يبقى هذا مجرد تفكير لا أكثر ولا أقل المشكلة الآن كيف سأخبر الخالة عن الأمر.

- السلام عليكم، أيتها الخالة، كيف الحال لم أرك منذ مدة.

- وعليك السلام ورحمة الله، أنا بخير وعلى ما يرام، وأنت لا تبدو على ما يرام، وهذا من لونك الشاحب، أأنت بخير؟

- أين سعد لم أره منذ مدة؟ هل هو في المنزل أود شكره عما فعله ليلة البارحة.

- قد خرج منذ قليل، قال إنه سيأخذ موعدا مع الطبيب لإجراء العملية عاجلا، وعن ماذا تود شكره، قلت عما فعله ليلة أمس، ما الذي فعل؟

- أجل، أولم يخبرك بما فعل، لقد جاء سعد ليبحث عني في المنزل ولم أكن هناك، لذا وجد ابني عبد الكريم مريضا للغاية فأخذه للمستشفى ودفع كل مصاريفه رفقة زوجتي التي لولاه لم تكن تعرف ما الذي تفعله، أما أنا فقد جننت كليا، لم أعلم أي شيء عنه وهو في المستشفى، وقد نسيت هاتفي عند أحد الرفقة، لقد كان يوما مضطربا للغاية لن أنسى جميله طوال حياتي .

- هذا واجبنا، أهو بخير الآن اطمئني.

- أجل فهو بألف خير الآن، وهذا بفضل ابنك المطيع.

- الحمد لله. نسيت أما من أخبار عن السيد جميل، لقد كنت قلقة بخصوص ذلك، فهو أملنا الوحيد لكشف الحقيقة.

لقد صدمتني بسؤالها المباشر، لم أعرف ما أقول في تلك الساعة، فأنا مشوش لم أعرف ما أخبرها، الحقيقة أم الكذب، ليس باليد حيلة، فأنا سأمزجهما، لقد نفذت أفكاري، لم أعد أعرف ما أقول، ما زال في قلبي أمل.

- لا، ما من جديد فأنا لم أجد السيد جميل في المقهى، وعند زيارتي له في المنزل كنت قد التقيت بأحد أصدقائه، وأخبرني أنه في رحلة إلى الريف وعلى الغالب أنه سيطيل هناك، لأنه مل من أسلوب المدينة وأراد أن يغير قليلا من جو الضيق الذي كان فيه .

- يا لسوء الحظ، لم يجد متى يذهب إلا في هذا الوقت، إن طالت رحلته سيكون الأوان قد فات، ستكون الأيدي مكبلة ولا نعرف ما سنفعل.

قلت في نفسي:

حمدا لله، أنها لم تسأل أكثر لكنت قد أجبت إجابة كارثية، وعملت من الحبة قبة حتى فاجأتني وقالت:

- فيمَ أنت شارد، ألم تشك في أي شيء؟ ربما صديق السيد جميل هو الآخر جزء من اللعبة، ألم يخطر في بالك هذا الشيء، أنا كنت واثقة أن هناك شيء، أرجوك زين، لا تخفي عني شيئا فأنا بمثابة أمك، لا تدري فربما أموت الآن أو غدا وأنت لم تخبرني بهذا السر، لم يفعل شيئا جميلا حتى أخفي عنه أرجوك، ماذا حصل ليلة البارحة؟

- صدقيني، لم يحصل أي شيء، رجاء ألا ثقين بي؟

- إذا. كيف أحسست بذلك الشعور؟ أخبرني كيف؟

صدمتني بكلامها لدرجة ظننت لوهلة أنها تعرف الحقيقة، فكم قلب الأم حساس لدرجة أنه بقي معها شك ضئيل، تمسكت به ولم تدعه يذهب سدى.

- لقد كان ذاك إحساسك فقط، لا تثقي في القلب بل ثقي في العقل لأن القلب سيأخذك ويعطيك وبالأخير سيسلب منك إذا أنا ذاهب وسأعطيك هذا المال أعطه لسعد عند عودته رجاء

- لا، أكيد لا أقبل منك هذا التصرف، كيف لي أن أقبله منك ونحن قد عملنا هذا الفعل الصغير إنني سأغضب منك.

- هذا ليس بالشيء الكبير، وأنا لن أنسى جميلك علي لذا رجاء.

- بوركت يا بني.

- آه، كدت أن أنسى إن زوجتي تبلغك السلام.

- حقا، لقد اشتقت لها كثيرا أحضرها معك غدا.

- حسنا وداعا.

- وداعا يا بني.

لقد خطوت خطوة للوراء بتصرفي هذا لقد كذبت وبكل أنانية لم أخبرها بالحقيقة المرة عن ابنها، كان من الممكن أن يكون هذا السر مخفيا والحق أنه كان من الممكن أن تتعقد الأمور أكثر إن لم أخبرها.

كانت لعبة حزينة، للأسف ماذا فعل الزمن بنا؟ لم أكن حاضرا كنت أغط في النوم عندما سقط النجم الكبير الملتهب فوق القصر من السماء بعد منتصف الليل من مايو.

كما استفاق الجميع من سقوط النجم وأنا لم أستفق، الأخير أحدث ضجة من الطبيعي أن ينهض الجميع، أما أنا لم أبالي.

وإنه لغريب طريف بالنسبة لي أن يحدث شيء ما وراء جدار قائم فلو قدر لي أن أمتزج في خيال بهؤلاء، فأدخل إلى مخيلتهم أتجاذب وأتزاحم وتضيق علي كتل الناس في بهو القصر الكبير.

كانت الآلاف من الوجوه البرجوازية المتكبرة المغرورة تنظر إلى القصر والجماهير الغفيرة من خلال الأبواب الرئيسية والنوافذ والشرف ومن فوق السطوح غير طامحة فيما وراء ذلك.

إن المشهد قد فقد قيمته وظرفه، حيث لا يكون من حولنا غير أشياء من القدم بحيث تبدو لنا جديدة كل الجدة.

كلنا أرواح هائمة في الكون وفي الوقت ذاته نعيش حياتنا، لكن بإحساس أننا نعبر من تجسد إلى آخر، إن لمس شيء غير مميز رمز روحنا تبقى في ذاكرته إلى أبد وتؤثر في كل ما يتبع لاحقا.

أحدق بحب للمستقبل، حب ينعس عبر الزمن، أو ما نتخيل أنه الزمن، كما لو كان عبر مرآة، لم تكن يوما لنا ولن تكون أبدا، هذا ما هو الأمر عليه.

سنقترب من ماء النهر ونستطيع أن نبلل أصابعنا فيه ولكننا ممنوعون من الغطس فيه وترك أنفسنا تنساب مع التيار، أشعر بامتنان للحياة أولا:

لقد أتاحت لي أن أجد حلا من جديد بعد أن اختلطت أفكاري ولم أعد أعرف ما الذي سأفعله، وقفت من جديد وأعطتني الحياة فرصة لأعبر بها دون نقص يسليني أن أرى نفسي هكذا مع أنني سأقول هذا ثم فجأة سأغير رأيي وسيكون مفاجئا طبعا للفكرة الأولى رغم كونها فكرة لامعة لمستقبل الغد، لكن ليس باليد حيلة لقد كانت عادتي هكذا وستظل، لأن ما من أحد سيغير عادته بتلك البساطة أو تلك السهولة وأبدأ أخيرا بتقبل فكرة أنه علي دخول ذاك للمرة الأخيرة فحسب، حتى وإن لم أجد الإجابة بعد سأبقيها ريثما أجد الإجابة المناسبة .

ثانيا، أنا ممتن للحياة لأنني كنت خائفا من قبل، والآن زال خوفي.

الرسالة:

ربما اليوم هو آخر يوم لي، ولا أعرف ماذا أقول وماذا سأفعل؟ لم أتوقع منك ذلك فأنت خنتني وأنا أهنئك على ذلك لقد خدعت رجلا مسنا وهذا أمر سهل بالنسبة لشاب مثلك كنت أظنك أنت الراقي والمثالي بينهم، كنت طيب الكلام راقي الفكر، إن كنت كفيف سأميزك بين كل العالم ولكن ماذا؟

لا شيء سأموت وحيدا وبطريقة بشعة، لا يحضر أحدهم جنازتي، هذا حتى إذا كانت لدي جنازة ولا حتى صديقي الذي أعتبره صديقا لي لا يستطيع المجيء، لا أستطيع أن أهرب سأكون جبانا عندما ستقرأ الرسالة ستقول إن كبار السن دائما أغبياء لكننا نحن نراكم في نفس غبائنا لا تدركون الواقع وحياتكم كلها فوضى.

أي بني

لقد تعلمت شيئا في هاته الحياة، لقد تعلمت أن أبكي عن طريق الابتسامة، سواء متنا أو عشنا ليس الأمر بتلك الأهمية، في هذه الدنيا كلنا سيلتقي بشخص لا تنساه الذاكرة، والعجيب ألا يكون لنا.

ستعجب به ستكون به جميع المواصفات التي نقشها عقلك لقلبك، ستكون أنت في مكان آخر، ستعيش معه حياة مختلفة نوعا ما، لن تستطيع أن تقترب ولا أن تبتعد فهو مرة عشيقا ومرة صديقا ومرة أخرى غريبا، وتمضي الأيام تتمنى أن تجد سببا لتكرهه ولن تجد، تخشى التعلق به وأنت فعلت حقا، أحيانا ستظنه لك لكن لا ستبقى صامتا.

في هاته الدنيا لقد تعلقت باثنين، أحببتهما حبا جما الأولى معشوقتي في شبابي ولم يكتب القدر جمعنا مع بعض لأن القصة جد معقدة، والثاني أنت ربما ستكون غريبا لا أعرف عنك شيء لكنني اعتبرتك صديقا وخادما مطيعا لا يربطنا شيء، لوهلة لقد وضعت كامل مستقبلي فيك، فقد جهلت الأيام التي ستشرق بها الشمس بدونك، سعد لقد خيبت ظني فيك ربما لأنك أردت قتلي أنت وأصدقاؤك وليس لأخذك مالي، فالمال إذا ذهب يعود أما أنا لن أعود، سأترك في رقبتك أمانة وحاول أن تحافظ عليها

مثل ما حفظت على خداعك، ألا وهي المقهى فهو ذكرى ثمينة وعظيمة توارثناها من أجدادنا وإن أردت اللجوء إلى منزلي فليس لدي مانع لكن بشروط وحاول التقيد بها قدر الإمكان:

الشرط الأول: هو المحافظة على عادات وتقاليد المقهى وترك الأثاث القديمة ولا تغير أي شيء فيه.

الشرط الثاني: أعط ثلاثة أرباع من الربح لمعشوقتي فردوس، فهي الآن في حالة يرثى لها فهي مطلقة ولديها ابنتان فهي مسنة وفقيرة ولا أحد يحسن إليها.

إذا طبقت هاته الشروط، فسأسامحك حتى وإن كان ذلك ...

أعلم أن لديك أسبابك لفعل هذا، أنا أفهمك.

تحياتي جميل

عند خروجي من المنزل مباشرة، وتلك الصدفة لقد وجدت سعدا أمامي وقلت:

- آه، سعد يا لهاته الصدفة كنت أبحث عنك أين كنت.

- أهلا زين، كنت آخذ موعدا مع الطبيب لإجراء العملية لأمي في أقرب وقت، وقد كلفني هذا وقتا، لأن الطبيب لا يتواجد هذه الأيام.

- هل وجدت المال الكافي لإجراء العملية الباهظة الثمن لأمك.

- أفف، مازالت مسألة المال راسخة في أذهانكم، أنت وأمي أولم أخبرك أن السيد جميل أعارني المال، كل يوم أعيد نفس الكلام مللت، وأراد الذهاب دون مبالاة حتى أوقفته قائلا:

- السيد جميل مازلت تتكلم عنه وبكل وقاحة بت أعرف كل شيء لقد بنت على حقيقتك لطالما اعتبرتك ابنا لي، ولكن متى تغيرت أخبرني لم أتخيل يوما أن أشك فيك ولكن للأسف لم تعد هناك أي ثقة تربطني بك من اليوم فصاعدا، أنت كسرت القواعد وخذ نصيحة مني أنت في الاتجاه الخطأ، وفي الطريق الخطأ يا للعار.

- عن أي خيانة تتكلم ماذا هناك؟ ما خطبك؟ أخبرني كيف لك أن تتجرأ وتقول هذا الهراء.

- يا للوقاحة وفوق كل هذا الكذب، لقد علمت كل شيء يا صاح وخير دليل على هذا هاته الرسالة التي تركها السيد جميل قبل أن يموت ألا ...

- انتظر،انتظر ماذا؟ أقلت قبل أن يموت؟ السيد جميل مات! كيف ومتى؟ يا إلهي ربما أنت مخطئ.

- ألا تستحي على عرضك وعلاوة على ذلك أنت تداوي أمك بأموال الحرام، السرقة والاحتيال والقتل.

- يكفي، أنا لست بقاتل لست قاتلا هذا افتراء.

لقد قرأ الرسالة لم يفهم أي شيء تعجب واحتار، ذهب يجري لا أدري إلى أين كان متجها، بت لا أعرف أي شيء تعقدت الأمور.

كانت فكرة غبية من سعد أن يترك الرسالة لدى زين، ستكون أكبر دليل ضد سعد، لم يفهم زين أي شيءسوى أن سعدا قتل السيد جميل واحتال عليه وسرق أمواله، وما عليه سوى أن ينهي مهمته التي بدأها، سيخبر الخالة فلة!

ماذا يخبئ لنا الزمن من مفاجآت، قصة سعد غريبة نوعا ما، وكأنك عشت مع ملاك واعتدت على طيبته والتمسك بعقيدته بأن لا يخطئ بأي شكل من الأشكال في هاته الأمور وفجأة تحول إلى شيطان.

في ذلك اليوم لم أتحكم في أعصابي كان يجب إخبارها بالحقيقة، في الأخير هي ستبقى أم، فالحياة مليئة بالمفاجآت إن لم تعلم اليوم ستعلم غدا وقد كلفتني بالمهمة.

- وما الذي فعلته؟ لقد فعلت، وفعلت ولكن الآن فات الأوان، والغريب أن الأمور التي نخاف منها أن تحدث دائما، لذا ستتحمل عواقب فعلتك ما الذي فعلته أنت وأصدقاؤك؟ عليك أن تحصد ما تزرع وإلا سيفسد الزرع ويذهب تعبك هباء منثورا، كيف لكم أن تقتلوا روحا بريئة ليست لها أي دخل في الموضوع وكأن الأمر سهل، وإنكم قتلتم حيوانا ودفنتموه وانتهى الأمر صحيح من قالوا كن مستعدا للسير وحدك، الكثير ممن بدأوا معك لن يكملوا معك المشوار فأنا لم أكن أستعد، فقير مرعب بكل الأشياء التي تأتي متأخرة عن موعدها بعد ما تجاوزنا ضرورة وجودها، بعدما وجدنا بدائل لها، بعدما

سمحوا له بالزيارة مرة واحدة في السنة ولم يأت أحد، ما العمل حين تقهر، حين تستنزف ضحكاتك وتتهافت الخيبات عليك، حين لا تستطيع البكاء ولا الشكوى وتصبح الفضفضة بلا فائدة، ما العمل أعتقد أن الشيء الأكثر رعبا في هذا العالم ليس فيلم رعب أو ما شابه وإنما أنك لا تعلم أبدا ما هي النوايا الحقيقية للأشخاص اتجاهك، هنيئا لمن لا يتوقع، فإن ظنه لن يخيب أبدا، أنا كنت كذلك إلى أن دخلتم أنتم في حياتي فغيرتم كل شيء في، روح بدون شخصية أصبحت هكذا لقد فقدت كل شيء، فقدت صديقي المفضل الذي كان يثق بي، فقدت حبا وثقة وكرامة وعاطفة وحياة أو بمعنى آخر لقد فقدت نفسي، ماتت الحياة في روحي وجسدي حيث لا أدري ماذا حل بي؟ لقد دفنت براءتي في مقبرة النسيان وأصبحت شخصا ناضجا إلى ذلك الحد الممل الذي يثير الشفقة لم أعقد معكم الصفقة، لقد قلتم إننا سنأخذ المال ونغيب عن الأنظار وأنا وافقت على ذلك وعندما يأتي السيد جميل نقول له أن عصابة ما أتت وسرقت المقهى هذا كل ما في الأمر، لماذا قتلتموه. لماذا؟

- لقد اضطررنا يا سعد، صدقني اضطررنا لفعل ذلك، ليس باليد حيلة فهو اكتشف الأمر وهددنا بالدخول إلى السجن، لذا لو لم نقتله لكنا الآن في ...

- هكذا إذن لم يعد العمر يتسع لمزيد من الأشخاص الخطأ، الناس كلها تخطئ، ولكن لا نخطئ بهاته الطريقة البشعة فهناك أخطاء لا تصلح مع الزمن لا يصلحها الوقت ولا ينساها ربما قد تحتاج عمرا لتقنع الآخرين أنك إنسان ولحظة واحدة لتقنعهم بأنك العكس.

- لم أستطع صدقني لم أستطع إقناعهم بكل الطرق لقد حاولت، لكن لماذا اضطررتم لم تخبرني بهذا السبب الذي يدع المرء أن يقتل شخصا فالحقيقة هي بعد أن تقاسمنا المال بالتساوي وغادرنا، أنا من بقي الأخير، كنت أحسب المال لقد أغلقت المقهى، بينما أنا كذلك فجأة ظهر السيد جميل ما لم يكن في الحسبان، لم أسأله لمَ قد أتى ولكن على ما أعتقد أنه نسي شيئا مهما، تفاجأ لأنني كنت هناك في وقت متأخر من الليل وقال:

- مساء الخير، ولكن لماذا ما زلت هنا في هذا الوقت المتأخر؟

- مساء الخير سيد جميل، فقط نسيت هاتفي هنا وأتيت لإحضاره، لقد كانت مكالمة طارئة أنا آسف سيدي لكنني مسرع.

أنت تعرف السيد جميل لقد بقي يسأل ويستفسر كالعادة وقال:

- أوليست المفاتيح مع سعد؟ من أعطاك إياها؟

- بالطبع سعد لكي أحضر هاتفي، آه هكذا إذن لقد انتبه السيد جميل للمحفظة التي كنت أحملها، لا بد أنه فهم كل شيء بعد أن رآها .

- انتظر قليلا، ماذا تحمل؟ أرني، وكأن شخصا ما قال له فتش الحقيبة.

- لا، لا ليس بالشيء المهم فهو شيء خصوصي! أرجوك أنا ذاهب

- قلت لك أرني وإلا...

بينما نحن نتشاجر على الحقيبة، سقطت على الأرض وتناثر المال كله، تفاجأ السيد جميل لما رآه

- لقد سرقت المال من الخزنة أليس كذلك! من الأول لم أثق فيكم، أعطني مالي أعطني إياه.

وأنا بالطبع رفضت لقد فتحت السكين باتجاه السيد جميل لأهدده لا أكثر ولكنه لم يفهم

- إنني لست خائفا من سكينك أو ما شابه لذا أعطني إياه وإلا... لقد اضطررت لضربه ولكن لم أقتله أنا أقسم لقد ضربته للذراع لا أكثر وسألني عنك قائلا: لا تقل إن سعدا خانني هو الثاني وسرق أموالي، أنا آسف لقد قلت الحقيقة وأجبت بنعم.

- ولكن...

- إنها الحقيقة، أما الآخر لا أستطيع أن أقول شيئا عنه أنا آسف.

- كيف ذلك؟ أنا شريكك، أقصد سأعتبر شريكا في ذلك، لما لم تعلمني بكل شيء لكنا قد حللنا المشكلة بطريقة ذكية، غباء كيف لك أن تضربه بسكينك الحادة.

- حسنا، حسنا سأخبرك بكل شيء لكن عدني بألا تخبر أي أحد منهم، سعد أتعلم أن أولئك الناس ليسوا أصدقائي فهم جماعة جد خطيرة، إذا عرفوا بالأمر، فلا أحد يعرف مصيرنا بعد كذلك.

- ماذا تقصد بذلك أخبرني، لو أخبرتني بذلك من الأول أنهم مجموعة مافيا أتت فقط من أجل مال السيد جميل.

- دعنا منهم الآن أكمل هيا.

- حسنا، بعد أن ضربته بسكيني هرول مباشرة إلى المنزل على ما أعتقد ولقد كنت جد خائف من مصيرنا لذلك استدعيت الجماعة وأخبرتهم كل الحقيقة لقد كانوا في الحانة، لم تمر إلا خمسة عشر دقيقة على ذلك، لقد ذهبوا إلى المقهى للتأكد أنه ليس هناك ومن ثم ذهب إلى منزله، المهم اتجهوا إلى المنزل ووجدوا الباب مفتوح، لم يستغرب السيد جميل البتة من ذلك لكنه سأل عنك.

- وماذا قال؟

- قال إنه ينقصكم خائن، أين هو؟ ألم يأت معكم؟ وقال أحد منهم لست أدري من هو.

- شهد قبل أن تموت، فأنت لست خائفا من الموت وتسأل عن سعد ابتسم ابتسامة باردة .

- إن الجبان يموت ألف مرة لكن الشجاع لا يموت إلا مرة واحدة.

بعد أن سمعت كل ذلك الحوار الذي دار بينهما اكتفيت بذلك وخرجت من المنزل ولحقني أحدهم من كثرة الخوف لم أستطع حتى تمييزه وقال:

- إياك أن تخبر أحدا بما حصل في هذا المنزل فالسر سيموت وإلا ستلحقه، إياك. لقد كان الصمت هو أفضل جواب لهذا السؤال، سمعت طلقات رصاص لقد كان أسوأ يوم في حياتي لقد كان تصرفا متهورا وأحمقا مني، لقد تسببت في قتله، لم أرد إخبارهم بأن ذلك النجار قد رأى كل شيء المهم الآن هو ألا يعرف أي أحد بهذا الأمر فهو ليس أمرا صغيرا كما تظن إنها جريمة وخاصة رجال الشرطة.

- غباء.غباء أتحسبون أن السيد جميل متهور لتلك الدرجة إنه لا يفعل أي شيء اتجاهكم!

- ما الذي دهاك لقول هاته الجملة؟

- حدسي.

- لقد اعتقد بأنني رئيس العصابة أو ما شابه لأنني كنت أملك المفاتيح، في الحقيقة أنا هو مركز كل شيء أنا من كان السبب في مقتله لقد كان غباء مني أنني وافقت، لكنني لم أندم لأن كل شيء في مصلحة أمي سأعوضها ولو كلفني ذلك كل شيء.

أتعرفون من هو الفاشل؟ الفاشل هو من يخشى الخسارة لدرجة أنه لا يحاول وأنا لم أحاول حتى أن أرضي نفسي حتى في تحقيق أحلامي وكأني في كابوس، ليتني أستيقظ منه لكي أعيش الحقيقة اشتقت لشعور قديم فيه تفاصيل صغيرة كانت تحمسني للحياة لحظة بلحظة، ذلك الشعور حينما كانت أمي بصحتها وعافيتها أريد لهذا الشعور أن يرجع ثانية، يروقني بأن أدعي أن هذه الأمور لا تؤلمني لكن صراحة أنا هش أن تفقد ثقتك بنفسك وتغلق أبواب السعادة في وجهك وتحول نفسك إلى أتعس الناس في العالم، فقط لأن أحدهم عجز عن الشعور بإحساسك الصادق نحوك ولم يلمح جمالك وصدقك وإخلاصك الذي أبهرت به الجميع

لا أدري ماذا يفعل زين الآن، وما إن كان قد أخبر الجميع أو لا ولكن يجب أن أصحح الخطأ الذي سقطت فيه، لقد مات السيد جميل وهو لا يعرف الحقيقة حتى أنه لم يسامحني ولم يسمع مني على الإطلاق، رغم أنني الحلقة البريئة في الأمر، وماذا؟ لقد توجت بالرئيس في غيابي، لا أريد أن أرأس مجموعة لم أترشح فيها قط.

قال سعد لحسان بصوت منهك ومتعب:

- كيف لي أن أصلح الأمر أخبرني، كيف؟

- المهم أنا سأغيب عن الأنظار لفترة، حتى تغلق القضية، وإياك أن تخبر أحدا عن الموضوع اعتبره تهديدا فهذه جريمة يا صديقي.

- ماذا؟ لن أخبر أحدا، مستحيل سأخبر الشرطة بكل شيء حصل عن جريمة القتل، لا تخف لن أذكر اسمك فأنت شبه بريء سأندم الآخرين عما فعلوه، أحقا لم يجدوا طريقة سلمية لحل القضية دون اللجوء للعنف والقتل؟

لقد كان يوما أسودا لسعد، لقد عرف حسان بما فعل، فقد كان صائبا فيما فعله لأنه أفقد سعدا الوعي بضربه بحجارة إلى الرأس وقال:

- أحمق، أيحسب أن المافيا ليست لديها جماعة تعمل معها في الشرطة، الأكثر من ذلك أنهم ليسوا موجودين في البلدة، لقد رحلوا وأنا سأرحل أيضا لدي المال الكافي للذهاب إلى فرنسا والتمتع هناك، عندما لا يملك المرء شيئا ليخسره، يصبح شجاعا وقويا وأنا أتردد فقط عندما أملك الأمل، ولكن لا أمل في هاته القضية، لقد انقطع منذ زمان ولم يعد يرى له أثر، قد تراني نفسي والعالم أعاني لكن لم يروننـي أسقط فأنا دائما ثابت، صنعت الثقة في نفسي وابتعدت عن هذا العالم، لا شيء سأخسره إن ذهبت فمن الصواب أن أذهب ولا يعرف أحد بحالي هناك أوقات أنظر فيها إلى البشر ولا أرى شيئا يستحق الإعجاب لذلك أجمع الكثير من النقود لأبتعد عنهم جميعا.

منذ ذلك اليوم لم يعد يرى أثر لحسان، ذهب ليعيش حياته بعيدا عن كل تلك المشاكل، وجد سعد نفسه في المستشفى وهو لا يتذكر شيء بينما رأسه كان يؤلمه للغاية، لم يأتِ أحد لزيارته ولم يتلقَ حتى مكالمة هاتفية من أمه أو من أي أحد وقال في نفسه:

كنت أعلم أنه سيخبرها وقلب أمي بطبيعته ضعيف فهي لا تتحمل أخاف أنها ستصاب بنوبة قلبية وهو لا يعرف حتى الحقيقة ولكن ذنبي الآن أكبر، أحيانا يكون أقوى إنجاز لك في الحياة هو أنك ما زلت بقواك العقلية وما زلت تتعامل بالأخلاق مع أنك محاط بكمية لا تحصى من الحمقى، يشعر التافهون ببهجة كبيرة حين يقحمون أنوفهم في أشياء لا تخصهم أو حياة غيرهم، سيتعبك قلبك لأنك صادق وبريء أكثر من اللازم ومشاعرك اتجاه الآخرين طيبة وعفوية لذا يخذلونك ويفاجئونك بأنهم أسوأ مما تتخيل، سيكون حينها حزنك أكبر من ظنك وكلماتك لا تصف ما بداخلك ولا ذنب لك سوى أنك بريء.

قيل لي عندما كنت صغيرا: «لا تعش قاسيا، يجب أن تكون مرنا حتى في ثباتك، ينبغي أن تميل إذا شعرت بالضرورة فللضرورة أحكام وأن تستند كلما شارفت على السقوط وأن تنهض كلما سقطت لا تبقَ هكذا صلبا فتخسر مروحة الحياة».

وضعي حاليا هو أنني شعرت بالضرورة فحاولت أن أميل وأستند على الحياة، لكن لا لم أحافظ على توازني وسقطت تقريبا نعم أخطأت وما زلت أخطئ، وهناك أشياء ندمت

على فعلها لكنني أتعلم وأعتذر وأتغير لست ممن يعتقدون أنهم بلا عيوب فأنا ما زلت إنسانا والإنسان خطاء بطبعه في كل الأحوال هذه غريزة، أعلم أن خطئي كبير ولا يحتاج للتأسف والاعتذار لأنهما لا ينفعان بعد فوات الأوان.

لطالما كانت ومازالت أمي سبب وجودي في الدنيا، فهي شيء مختلف تشعر وكأن الله أعطاك روحا أخرى غير الحياة لا شيء يشبه أن تكون لك أم رائعة ليست بلهاء فقط، أؤمن أن الحب الحقيقي هو حب الأم فهو يمكنه أن يجعلك تتجاهل وجود الموت، نكون ضعفاء جدا عندما لا نجد الحب الحقيقي أو نفرط فيه، فالأم مهما عاندتك أو اختلفت معك لن تتركك ولن تخذلك لأنها تحبك بصدق.

لماذا أحببتها كثيرا؟

لأنها الوحيدة التي أذهب إليها مثقلا بحزني وأرجع وكأن الحزن لم يمر بقلبي أبدا.

لقد أخرجوا سعدا من المستشفى لقد كانت حالته خطيرة نوعا ما لقد أخاطوا الجرح الموجود في المنطقة القفوية، لم يتذكر أي شيء بخصوص ذلك ومن أتى به إلى هناك؟ قالوا إن أحدا جاء به للمستشفى ربما أبوه فسر لهم أمر موت أبيه، اتجه مباشرة للمنزل بعد خروجه من المستشفى فلم يجد أي أحد ولا يدري أين اختفت أمه كان يدري أن زينا قد أخبر أمه، لقد كان في حيرة كيف سيقابل وجه أمه بعد كل ذلك؟ وقال في نفسه: أصبح عندي اسمان الأول المخادع والثاني البريء، لقد كانت شجاعة كبيرة مني أن أذهب إلى المنزل وأقابل أمي، حتى أنني لم أستطع النظر في المرآة وأرى نفسي الوقحة الغبية التي فعلت بي كل هذا تحت إرادتي، ولكن تعلمت قاعدة الرجل الأقوى هو الذي يقف وحيدا في أكثر الأوقات، ولكن العامل الوحيد الذي جعلني هكذا هو الفقر فقال: أن الفقر ليس عيبا، كان يريد أن يكمل ويقول: بل جريمة لكن الأغنياء قاطعوه بالتصفيق الحار!

هذا الوقت سيمضي، ربما كعبور شاحنة فوق صدرك لكنه حتما سيمضي، في المرة الأخيرة التي أتذكر فيها نفسي عندما كان لا يهمني أن أكون شخصا كاملا سيكفيني فقط أن أكون شخصا لا ينافق ولا يخون ويجامل ولا يعرف الناس وقت الحاجة، بل إنسانا ذو كبرياء

متوسط أما الآن فأنا أكبر مخادع وخائن لقد سألت نفسي مرة كي تزداد ثقتي وقلت: ما هذا السواد الذي يحاصر عينيك؟ أردت أن أحرر نفسي، سهر، حقوق، أرق، مجرة هاربة أو وسام يتوج به الليل فرسانه عندنا مثل شعبي يقول «بغيت تكحلها عميتها»

لم أعرف الجواب، وتركت ذلك العمل للمستقبل كي يريني إبداعه في الإجابة، لكنه لم يكن هناك عندما احتجته في الجواب، والآن ماذا؟ أتساءل هل القدر يؤذيني أم يعاقبني؟ عندما يخلق الظروف التي تجعلني لا أستطيع السعي وراء رغباتي، عندما يجعلني أحب شخصا لا أستطيع امتلاكه، عندما يجعل حظي عاثرا هكذا، عندما يزرع في داخلي أمنيات لن تتحقق مع الزمن عندما يضعني في مكان لا أنتمي إليه فالأذى شيء والعقاب شيء آخر.

حل الليل والأم لم تعد بعد إلى المنزل لقد كان سعد قلقا عن تأخرها هذا وهي لم تتصل حتى، كان سعد يتأمل في السماء ويقول في نفسه ماذا يخبئ لي الزمن يا ترى، لقد انقطع الأمل، فابتسم وقال:

ربما هو آخر يوم لي في هاته الحياة، فطيلة هذا الوقت كنت أفكر في نفسي فقط، في راحتي فقط، لقد كنت أنانيا باختصار لقد كنت مغرورا.

كانت الحياة تتنفس تنفسا كبيرا صامتا وعميقا على البحر وعلى المرافئ، فقد حرره جرس الساعة التاسعة البعيد جدا منه والقريب جدا، كان ذلك يوم السبت وكان ذلك فصل الخريف وكان الزمن ليل حالك مليء بالنجوم الساطعة المتلألئة، فهو لم يتناول العشاء بعد، وبعد برهة تناول بيضا مقليا، فهو ليس من أولئك الحمقى الذين يمتنعون عن الأكل حين تسوء الأمور فلا ذنب لمعدته البريئة بما يدور في العالم الخارجي، ثم استلقى وشعر بدبيب النوم يجتاحه فغط في النوم حتى صباح اليوم التالي واستيقظ في الغداة بعد نوم مضطرب لم يجلب له أية راحة، وشعر حين استيقظ بأنه متعكر المزاج سريع الالتهاب، ونظر إلى غرفته نظرة كره ومقت فالنور المنعكس على الجدران البيضاء يشعره بالتعب، وكل زاوية وكل انحناءة كانت ترتسم بصفاء جرحا للعين، رتب هندامه

ونزل ليتناول فطور الصباح وبعد ذلك ذهب ليلعب الكلمات المتقاطعة فقد كان شغوفا جدا بها، بعد ذلك وقف على الشرفة فقد كان المنظر رائعا وكان الناس قليلين ومسرعين أيضا أما هو فقد كان يتابع بعينيه كل إنسان بدقة ثم يتركه بعد أن يبعد عن نظره ليعود مجددا، ثم مر أربع شباب وكان شعرهم ملمع فربما أصبحت موضة وكأنهم توائم فالأربعة تقريبا يلبسون اللباس نفسه، كانوا يذهبون على ما أعتقد إلى دور السينما الموجودة وسط المدينة ربما لمشاهدة الفيلم الجديد «لا لا لاند» كانوا يسرعون نحو القطار وهم يضحكون ضحكات عالية لافتة للانتباه، كانت السماء بالرغم من صفائها، صافية بلا إشراق فوق أشجار التين والزيتون التي كانت تحيط بالشارع، وكان هناك صبي يكنس الأرضية في القاعة الفارغة في المقهى لقد ذكره بنفسه حينما كان ينظف المقهى لوحده، خرج ذلك الصبي إلى الشارع فاقتطع قطعة من الشوكولا وعاد ليأكلها عند النافذة، وبعد قليل أظلمت السماء ثم انقشعت على الأثر ولكن مرور الغيوم كان قد خلق على الطريق ما يشبه وعدا بالمطر جعلها أكثر ظلام، أعد طعامه وأكله كان الجو رطبا ارتعش فأغلق زجاجة النافذة التي قد نسيها مفتوحة، قال سعد:

- يوم آخر ينقضي وأنا لا أعرف ما الذي سيخبئه لي الزمن؟

نم يا حمامي، لقد تأخر الوقت يجب أن تخلد إلى النوم بعد هاته الأيام التي مرت عليك، فقد كانت صعبة حقا لذا استرح قليلا أظنك قد علمت أن هدوئي لا يعني أنني بخير بل هناك في قلبي انفجار ولا أريد أن أخرجه لأحد وهذا يسمى هدوء قبل العاصفة ولكن تلقيت إشارة من أحدهم بأنني لن أبقى طويلا، لن أزعجك بعد اليوم ولكن يجب أن أنصحك بعد ذهابي لئلا ستكون خيرا عليك فأنت تريد أن تكون كما أنت الآن، أنت فقط تريد أن تكون على طبيعتك، أصدقاؤك وعملك وصاحب المقهى الذي يقابلك بضحكة عريضة كل صباح قد يكون مجرد روتين قاتل يحمل ساعة لحياتك بعد عكسي متسارع، تلك الضبابية التي تشوب حياتك لا بد أن ترقى إلى أن تكون مجموعة من القرارات الصبيانية التي اتخذتها في لحظة تسرع وطيش « أنت لا تحب الأغاني الكلاسيكية ولا تعشق القهوة ولا تحب اللون الأبيض، أنت فقط تدعي بذلك فأنا أمك ولا بد أن

أعرف أشياء عنك لا يعرفها المزيفون والساذجون عنك» لا يهمني أن تكون شخصا لا يخطئ يكفيني فقط أن تكون شخصا ناضجا بحيث ألا تقترف أخطاء أكبر من رأسك وأنت لست كذلك، لذا بعد رحيلي أرجوك يجب عليك أن تفهم جيدا أنك وحدك من يتحمل ضرر بؤسك ومبالغتك في حزنك وعاقبة أخطائك فرفقا بنفسك.

استيقظ سعد من كابوسه حيث رأى أمه وهي توجه إليه تلك النصائح، ربما ستنفعه في المستقبل القريب، لقد كان الوقت فجرا واشتد عطشه، لذا راح يشرب الماء وعند عودته للغرفة وجد جورب أمه الذي كان لايزال عن رجليها، وذهب للسرير مجددا، شرع بالبكاء وبتقبيل جواربها، لقد كانت ملامح الحسرة والندم بادية على وجهه، فالإهمال ينهي كل شيء فقد كان بالأمس جميلا.

بالغ سعد كثيرا حيث بلغ من شدة عدم اكتراثه أن تمنى في النهاية أن يقبض على دقيقة واحدة ليحس فيها بما يستحق الاهتمام لقد كان مرهقا ولا يستطيع التحكم في نفسه، هكذا هو حال المحطم إذا غابت عنه حبيبته غاب كل شيء، سوف يتوقف القلب عن النبض وقتها.

لقد عادت الأم في اليوم التالي للمنزل، ووجدت ابنها سعدا نائما وكان البرد شديدا شعرت الأم بحسرة كبيرة على فعلة ابنها وقالت في نفسها:

- لقد عشت من عمري سنينا وسنينا ورأيت الكثير والكثير ولم أرَ ما فعله ابني، لم أفعل أي شيء لكي يعاقبني الله وسط هذه الظروف الصعبة، لا أستطيع أن أتعامل مع شاب فتي، لقد علمني سعد أني لست وحيدة في هذا العالم، وأن أحل مشاكلي الشخصية فهي ليست فريدة من نوعها وأن أقارن نفسي مع من هم أقل مالا وجمالا وحبا وسعادة ويقول:

- انظري إلى أولئك، واشكري ربك لا أحد يستطيع أن يشعر بما أشعره الآن.

وأنا ألامس شعر ابني المجرم ،أنا مكتئبة جدا وذلك الشعور ينتابني مرة أخرى حيث لا أستطيع إخبار أحد عن هذا العالم لقد صدمت وتعذبت طيلة هذه الأيام التي ابتعدت عنه عن سعد واكتشفت مؤخرا أنه ضرب في الرأس، لا أعرف السبب ولا أريد

أن أعرف، لا أدري كيف سأتعامل معه، فنحن لسنا بمحتاجين، صحيح أننا نسكن في كوخ صغير بغرفتين وحمام في مكان مظلم وبعيد بعيد جدا، ولكن جعلنا كرامتنا فوق كل شيء ليس العيب أن نكون فقراء إنما العيب أن نموت فقراء، في الواقع أن المفاجأة قد أدهشتني، رغم أني لم أكن أنتظرها منك ولم أحسب حسابها، لقد كنت أنتظر منك الأفضل، لا تقل أنك قد فعلت ذلك من أجلي، لا تكن أنت من يحكم على الناس بمعيشتهم ربما سأموت وربما سأبقى حية لأن أعمارنا بيد الله، صحيح أن بالأمس كنت أبدو وكأنني أستطيع أن أحمل العالم كله على كتفي، والآن بالكاد أحمل نفسي، سيء جدا أن تحمل هموما ليست مناسبة لسنك في وقت مر، من المفترض أن تعيش أجمل أيام حياتك، فلا توجد مشكلة تقودك نحو الاكتئاب، بل تصاب بالاكتئاب بمجرد تفكيرك بالمشكلة نفسها دون إيجاد حلول ملموسة، فقط حاول أن تكون قدوة فالحياة قد حطمتني عدة مرات وأنت تعرف ذلك أفضل مني، رأيت... مالم أكن أريد أن أراه، عشت الحزن والفشل، ولكن الشيء الوحيد المؤكد أني أستطيع النهوض، إن كنت تعتقد أن المال قادر على تغيير حياتك فأنت على حق، ولكن بشرط أن يكون حلالا، عش حياتك يا بني ورفقا بنفسك،كن كما أنت، كن كما تريد أنت لا كما يريد الناس.

العاشرة صباحا، استيقظ سعد أخيرا ولم يشعر بوجود أمه في المنزل، قام بغسل وجهه واستغرب عند رؤية النافذة مفتوحة وقال:

- أنا متأكد بأنني أغلقت النافذة.

- أنا من فتحها.

- التفت وراءه إذ به يرى أمه، ذلك الشعور الذي ينتاب الإنسان عندما يختلط كل شيء في شيء واحد ،ألم، خوف، وسواس، قلق، ارتباك، عرق، تغير لون سعد في ثانية عندما سمع صوت أمه، عجز لسانه عن الكلام وقال: أهلا أمي، لكن متى أتيت لم أشعر بوجودك، أين كنت؟.

- في منزل زين، أما من شيء يزعجك بمجيئي؟ لقد رأيت لونك تغير واصفر كالليمون فقط لم أتوقع منك ذلك.

لقد كان الخوف ينتاب سعدا أكثر وأصبح متأكدا بأن زينا أخبر أمه كل الحقيقة، قالت الأم بكل برودة:

- دون اللجوء إلى مقدمات أو زخرفة الكلام، أود منك تفسيرا منطقيا حقيقيا على كل شيء حدث!

- ماذا لم أفهم؟ وبدأ يتهرب من السؤال أراد أن يشتت انتباهها ويمثل دور البريء في الأمر،

- اخرس! أخبرني عن فعلتك التي قمت بها لسيدك لن أحكم عليك حتى أسمعك، فقط أخبرني الحقيقة.

- حسنا أمي سأخبرك كل الحقيقة فقط لا تغضبي ارتاحي أولا ، أنا لا دخل لي في كل هاته الأمور في ذلك اليوم لم يأتِ السيد جميل لقد كان في عمل خارج المدينة وأنت تعرفين أنه يترك المفاتيح عندي وأنا كل ذلك الوقت لم أفكر حتى في فتحها أو أخذ أي شيء منها، في ذلك اليوم كنت مع حسان ذاهبان للمقهى بينما أنا أتفقد جيوبي حتى أرى المقهى مفتوحا وطبعا السيد حسان هو من خطط للأمر لقد خطر في بالي أن السيد جميل لم يذهب إلى أي مكان وأهمل عمله، والأغرب من ذلك لم أجد مفاتيح الخزنة بالذات لقد شككت في الأمر وذهبت لأتفقد المكان، لأرى أصدقائي فرأيت العاملين الجدد أو المافيا يحاولون فتح المقهى وعندها وجدوا كنزا عظيما، لقد كانت ثروة طائلة كما حاولت إيقافهم لكنني وقعت في الشبكة في الأخير أقنعوني لآخذ جزءا من المال واقتسمناه، هذا كل ما في الأمر وهو موجود معي ولم أصرف منه حاليا، لقد كان هدفي الوحيد هو إجراء العملية عاجلا غير آجلا، وكان حلمي الوحيد هو أن أراك تتعافين وبصحة جيدة مرة أخرى هذا كل ما في الأمر يا أماه فأنا أقول الحقيقة لا غير، أنا أرجوك ثقي بي لا تعاقبيني بهذه الطريقة.

- أنا أريد أن أصدقك، ولكن...

يا للوقاحة يا بني، أنت لقد فعلت كل هذا، وعلاوة على ذلك لم تندم على رأيك وعلى فعلتك، لكن لقد أعجبني فيك شيء وهو أنك أخبرتني الحقيقة، أتعلم سعد أنت حقا

مثير للشفقة، قلت إنك فعلت كل ذلك من أجلي، أنت أناني لأنك فكرت في نفسك ولم تفكر في حتى وكيف سأشفى بمال الحرام أنت لم تفكر بالمستقبل وإنما في الحاضر لذا كنت أحمقا، لقد أردت أن تواجه الأمر فألقيت بنفسك في ... ولكن لم تخبرني بحقيقة شيء آخر.

- ما هو يا أمي؟، أنا أخبرتك الحقيقة وبكل شيء صدقيني.

- لا تقل صدقيني، فلا توجد ثقة بيننا منذ اليوم، كيف لي أن أصدقك وأنت ما زلت تكذب أخبرني كيف؟ أنت لم تتفوه بأي شيء بخصوص مقتل السيد جميل أنت وأصدقاؤك لقد قتلتموه وبكل وحشية!

متى تغيرت يا سعد لدرجة أنني لم أعد أعرفك، لم أصدق في البداية وكنت أبكي وأبكي وأبكي، لكن لا جدوى من البكاء والتحسر على شيء لا يستحق، أردت أن أبدأ حياة جديدة أتعلم! إنني تلقيت مكالمة هاتفية من المستشفى وقال الطبيب يجب أن تأتي إلى المعاينة فحالتك تزداد سوءا يوما بعد يوم ونحن لا نعطيك نسبة بقاءك حية حتى الآن، لذا أرجوك تعالي وإلا أنت تعرفين ذلك أفضل مني، لقد كان الصمت والبكاء هو الجواب الوحيد لهذا، لم يعرف الطبيب أنني قد توفيت منذ ذلك اليوم، منذ أن قرأت تلك الرسالة، أتعتقد أن زينا هو من أخبرني أنت مخطئ فأنا وجدت تلك الرسالة بالصدفة فوق المكتب، أردت شنقك حتما عند قراءتي لها، وهذا ليس تطفلا أو فضولا فقد وجدت اسمك على الرسالة، لم أعرف ماذا أفعل في تلك الدقيقة أتعلم لقد خيبت ظني فيك لم أتوقعها منك وفوق كل ذلك ألقيت اللوم علي وأن كل شيء من أجلي، والآن إذا أردت اخرج من البيت، أريد أن أرتاح قليلا .

دخلت الأم إلى غرفتها، أما سعدا فكان جوابه الوحيد هو صمته وقال في نفسه:

-لو أنك تعلمين يا أمي كم يزعجني هذا العالم أريد الفرار، وأمضي بعيدا عن هذه القذارة ولست أدري إلى أين.

أما الأم فعيناها أرهقهما البكاء لدرجة أنها كادت أن تصاب بالعمى وقالت:

- بعد كل هاته السنين لقد تذكرت شيئا مهما في طفولة سعد، أتذكر كل شيء وكأنها

جرت البارحة، لقد كنت أطهو الغداء والتعب قد أرهقني حتى سعد أتى وقال:

-أمي هل تعلمين أن المعلمة اليوم اختارتني لأمثل دور الأمير! حقا أنا فخورة بابني الجميل، ذهبت وقبلته على خده وبدأ في إلقاء الدور: بدا صوتي يقل تدريجيا حتى اختفى، قولي لي لماذا؟

- لمَ؟

- سأدعك تعرفين، لا ليس تلك الحالة مجددا، أصبت بالدوار أشعر بأن الطريق أمامي أصبح مائلا إلى اليسار وأحيانا إلى اليمين حتى المكابح لا أستطيع الوصول إليها من شدة الدوار، انتهى بضوء شاحنة كبيرة قادمة من أمامنا والتي جعلتني أستعمل فرامل السيارة بقسوة.

- أمم لقد فهمت لقد اختفت ابنتك.

- أجل يا أمي كيف عرفت ذلك؟

- هذا لأنني ساحرة!

- عجيب يا أمي! اتركيني أكمل، حينها لم أستطع التفكير في أي شيء غير ابنتي، أبحث عنها بينما تنقلب السيارة رأسا على عقب عدة مرات، تارة أجدها وتارة أخرى تضيع من نظري وينصدم رأسي مع شيء لم أعرف ما هو، لكنه أفقدني وعيي للحظات طويلة، صافرة الإسعاف كانت مزعجة أكثر من كونها منقذة بالنسبة لي كنت أسأل المسعفين عن حال ابنتي ولا أحد يسمعني مع أنني كنت أميرا، كنت أتمنى لو كان مجرد كابوس. الآن أرى زوجتي وابنتي معا ينظران إلي، وبدأت أتساءل أين أنا؟ ماذا حدث؟ استقبلتني ابنتي الصغيرة عند باب المنزل وقالت:

- أبي. أبي أنت وعدتني اليوم بأن تأخذني إلى حديقة الحيوانات.

- عزيزتي أنا متعب جدا اليوم سنذهب غدا وقبلتها على رأسها بعد أن جثيت على ركبتي، إن أردت ذلك فاطلبي من «الخادم» أن يأخذك لا. لا . أريد الذهاب معك أنت فقط وأريد السلحفاة معك أنت فقط أنا أرجوك.

عيناها الصغيرتان كانتا شيئا لا يقف أمامهما الرفض إطلاقا، كانت تملك الملامح نفسها التي فقدتها بفترة ليست بطويلة، كان فقدانها لوالدتها أثرا صعبا على كلانا وبالتأكيد

الحنين إحساس من أسوأ ما يمكن، لم أرد أن أتزوج وهذا من أجل ابنتي طبعا أنا لست كوالد بياض الثلج أتزوج امرأة شريرة وابنتي تحصد ما أزرع، أخذتها إلى حديقة الحيوانات بكل حب مع أنني متعب وعشت معها بقية حياتي كأي أب مع فتاته.

لقد ضربته على رأسه

- أنت غبي من جهة ومن جهة أخرى لا، تألم سعد من الضربة

- ماذا تقصدين؟

- أنت غبي لأنك قلت لي كيف عرفت هذا، أو لست أنا من كتب المسرحية؟ وأنت ذكي لأنك حفظت دورك وفهمت القصة، لكن لماذا أضفت ... أرجوك لا.

- أمي هل تعرفين أن المشاهد القاسي القلب هو من لا يبكي على الأمير وابنته.

- صحيح، بالمناسبة أنا لست غبيا كما تتوقعين أنا أعلم جيدا أنك أنت من كتب المسرحية لكن عندما رأيتك في المطبخ مرهقة قلت في نفسي لأرفه عن أمي قليلا وستفخر بي مع أنها لم تحضر، وكل الأولياء جاءوا لرؤية أولادهم في المدرسة وأنا أقدر لك ذلك لأنك مشغولة كثيرا.

- ما زلت غبيا يا سعد لقد أتيت إلى المدرسة وحضرت المسرحية، لقد كنت في المقعد الخلفي لذا لم ترانِ.

- حقا، لكنني لم أراك.

- عندما لا ترى شيئا اصمت فالصمت هو أجمل شيء يمكنك أن تفعله.

- حسنا، حسنا يا أمي سأفعل أي شيء تريدينه وشكرا لمجيئك.

- لقد نسيت شيئا.

- أفف، لقد كبرت على هذا يا أمي

لقد قبلها على جبينها، ولد مطيع.

كانت ثمة دموع كبيرة، دموع توتر وحزن تنهمر على خديها كانت تنقسم ثم تتلاشى لتكون طبقة براقة من الماء فوق وجهها المتهدم وأخيرا لابد للحكاية أن تنتهي، ولكن ربما سيشكرني سعد على هذا يوما ما ليأخذ فكرة عن الحياة، لعله سيأخذ كلامي وينتفع بموعظتي.

وأنا أجالس هذه الورقة كان القلق يتملكني بعد أن قضيت النهار بطوله أؤجل هاته اللحظة، قررت ببساطة أن أعاقب ابني سعدا بطريقة القانون لا بطريقتي الخاصة، أصبحت لا تجدي نفعا مع كل الناس الذين تعاملت معهم بهذه الطريقة ليس سعدا فقط بل الجميع، كنت أنوي إفراغ رأسي من كل أمر كمن يفرغ قبوا من محتوياته وذلك لأكون مهيئة للشكوى التي سأقدمها ضد...

تعودت على رؤية السماء نفسها الملبدة بالغيوم والإحساس بحرارة الصباح نفسها، ونحن في فصل الخريف كانت الطبيعة التي تحبطني وكأنها في صراع مع نفسها ومع عناصرها: أمواج البحر تصفع الشاطئ، الرياح تعصف أشجار النخيل، العواصف التي تضرب السحب لتلد بعد قليل مسببة ازدحاما خانقا في السير، تسارعت نبضات قلبي كانت لدي فكرة ولم أكن أعرف من أين أبدأ، كانت عقارب الساعة تشير إلى الساعة السابعة والنصف صباحا.

لقد شعرت بالذنب وأنا أكتب، أردت أن أتحدث عن كل شيء، أردت أن أفهم لماذا تأخرت كل هذا الوقت، قلبي الأبيض لم يسمح لي بمعاقبة ابني وكان يقول:

- مهما فعل لا يزال صغيرا، عاقبيه لكن ليس بهاته الطريقة وأنك ستندمين فيما بعد البشر خطاؤون ربما تكون الأخيرة فأنت حنونة على الجميع، أبقي تلك الشعلة متوهجة.

صوت الحياة في الخارج بدا فجأة وكأنه يتلاشى وأنا مريضة للغاية لقد كنت مريضة، المرض هو الدافع الوحيد الذي جعل ابني سعدا يفعل كل هذا لو أنني لم أمرض لكنا الآن ننعم بعيشة راضية، خالية من المشاكل وكل هذا الهراء، لكن لا يجب علي أن أندم وأشعر بالحسرة في هذا الوقت، يجب أن أكون قوية وصريحة مع نفسي ومن أجل مصلحته سأفعل كل شيء ففي الأخير هو ابني وهذا واجبي ربما أنا قصرت في تربيته لقد كان الحظ تعيسا، آه لو كان نزيم حيا.

أعلم أنني امرأة لا تعلم أي شيء عن القانون أو ما شابه، لكن قررت أن أكتب شكوى اتجاه أعز الناس عندي، لأن هذا الشيء الذي فعله ربما لا يغفر ولكن سأترك الأمر بين يد الله وسأصلي صلاة الاستخارة لأنني مترددة نوعا ما، لا يوجد شخص يحبني أو يأمل أن يعرفني أكثر منه.

مرت الأيام... اكتشفت أن روحي هي التي لا تريد أن تعرف أحدا أو تثق في أحد بعد الآن، تشعر بأنك تقف في المنتصف تريد الشيء ولا تريده.

أنا وبكل سهولة أريد أن أتقدم إلى الشرطة وأقدم شكوى اتجاه ابني بتهمة سرقة مال وقتل نفس متعمدا هو ومجموعة من أصدقائه.

لقد قامت الأم بإيداع الشكوى، قلب الأم محطم دون شك أتمنى ألا تندم على هذا القرار فهي مستعدة للسير وحدها وهي تعلم أن الكثير ممن بدأوا معها لن يكملوا معها المشوار عندما لا يملك المرء شيئا ليخسره يصبح شجاعا وقويا هي مترددة فقط عندما تملك أملا، صحيح من قال إن المشاعر التي تغيرت بسبب الإدراك لا تعود، لا تسعَ لكسب إنسان من جديد بعد إدراكه لمن تكون فالمدرك ليس كالغاضب ولا كالغيور المدرك لا يعود، ماذا ستكون ردة فعل سعد عندما يسمع بهذا؟ سنعتاد ثم ننسى ثم نصبح بخير.

يقولون لكي لا تصاب بخيبة أمل، لا ترسم في مخيلتك أن أحدهم لا يستطيع الاستغناء عنك لقد كانت فترة قديمة منذ أن زارني سعد في المنزل ولا أتذكر ذلك، المهم أنه أتى إلى زيارتي اليوم لقد تعجبت! كيف له أن يأتي بعد كل تلك الفترة؟ رأيته محطم من كل أعماق قلبه ولم أستطع فعل شيء لأول مرة انتابني ذلك الشعور وكأن صديقك سقط من أعلى التلة ولم تستطع إنقاذه! لماذا؟ لأنني تأخرت وكان قد فات الأوان، الإهمال ينهي كل شيء كان بالأمس جميلا لقد كانت السعادة تغمرني من جهة ومن جهة أخرى لا. لقد كان ينظر إلي سعد وكأنه يقول:

- أنا في عزلة، والعزلة الداخلية أقوى وأصلب من ذاك الذي يحشر نفسه في حجرة، أنا أخالط العالم دون أن أخوض حوارا حقيقيا أو كاملا حتى، أشعر بالخراب ولا أعلم ما الذي ينهار بداخلي كل هذا الوقت.

لقد كان الجو هادئا وصامتا حتى تكلمت:

- أتعلم يا سعد لقد اختفت ملامح الفرح التي كانت تسكن وجهنا بينما كنا نلتقي كل الوقت، لم أرغب في سؤاله عن سبب مجيئه إلي بعد كل هاته الفترة

- سأغير ملامحي إن اشتقت إليها.

- يا ليتك تفعل ذلك.

- فيمَ تكمن راحة البال أو الراحة عموما؟ أنا شاب في مقتبل العمر أواجه امتحان الحياة لكنه صعب.. صعب جدا أو أنا الذي جعلته هكذا، ليس من الإنصاف أن أتحمل هموما أكبر مني، إنه ظلم، سلاما على حياة لا حياة فيها، لا أحد يعلم كم من النزاعات تحدث داخلي يوميا وكم يكلفني الأمر لأبدو بخير، أتظاهر بذلك لا أكثر تعبت من الأشياء التي انتهت لكنها استمرت في ذاكرتي، ما يؤلمني أكثر، كلام في داخلي أعجز عن قوله أو بطريقة أخرى أخجل عن قوله أتعلم أن غيابك دائما يصادف وقت احتياجي لك، قست علي الأيام أنا مجرد بقايا إنسان يتظاهر أنه على قيد الحياة وتلك الخيبة ستصنع منك شخصا عظيما، تذكر هذا دوما الغريب أن الأمور التي تخاف منها تحدث دائما فالصمت هو المحاولة الأخيرة لاختيارهم بكل شيء لم يقدموه حين كنا نتكلم، قد يصنع هذا الأخير ما لا يصنعه الكلام وقد يعالج البعد أمورا لم يستطع القرب علاجها . مع أنني لا أعرف أي شيء عن الموضوع ولا أريد أن أعرف لأنني لست فضوليا ولا أريد أن أحشر نفسي فيما لا يعنيني.

- بالرغم من كل ذلك أنا أصدقك لا شيء يحدث للإنسان إلا وقد منحه الله القدرة على تحمله، عادي جدا لراحة بالك اصمت كأنك تفهم وتجاهل كأنك لا ترى.

- أتعلم يا صديقي! أصبحت عندما أنظر في المرآة أرى شخصا ما يحدثني وأشعر بشيء ما يجعلني أختنق من الداخل وكأنني سأموت ولن أستيقظ في الصباح وأحس أيضا بأنني لا أستطيع العيش في هذا المنزل وأني لا أستحق شيئا لا أهلي ولا أحد من البشر وأن الأيام قد تمر وتجعلني أختنق وأفكر بالأشياء، يستحيل أن تحصل على راحة وإن كنت صاحيا أشرد كثيرا وعندما يحادثني أحد ما أسمع منه جيدا ولكن أنظر إليه باستغراب وكأن أول مرة ألتقي به، هل أجد تفسيرا لما حصل لي، أم أن علامات الجنون قد بدأت تظهر، أصبحت لا أعرف ماذا أفعل أصبحت مثل الحديد أو قلبي مثل الحديد .

- من جمال الحياة أن الله يبعث في طريقك ما يوقظك بين الفينة والأخرى، أنت الذي ظننت لوقت طويل أنك مستيقظ، تخيل أن الحياة تتجمد فجأة، تتوقف الأحداث، تصمت الأصوات، تختفي ملامح البشر ويصبح الحوار الوحيد يدور بين عقلك وقلبك بصوت مرتفع حينها سيقول العقل:

- أيها الأحمق أنت من حطمت كل شيء كيف لك أن تسامح وتشعر بارتياح اتجاه أناس منافقين والقلب سيقول:

- أنت كيف لك أن تأخذ قرارات لا يسمح لك القلب بأخذها؟.

لقد كان الحديث طويلا، ما سيكون جوابك حينها يا سعد؟

- سيكون الاستماع إليهما والصمت لأنني لا أملك أي فكرة عما يحدث لي وأفضل شيء أن القلب والعقل بالرغم من أنهما لا يتفقان مع بعضهما البعض لكنهما في الأخير منقوشان لتأدية الوظيفة نفسها.

النهاية المحتمة أم البداية الغامضة أم الخيال الذي يجعلك تصل إلى الجنون، الخوف يسيطر عليه يشعر أنه ضائع لا يعلم من هو؟ وأين هو؟.

عندما تشعر أنك فقدت كل شيء وليس هناك شيء تفكر فيه غير اللحظة التي تعيشها الآن وتكون حياتك مثل كتاب أصبحت أوراقه بيضاء وتغمض عينيك وتحاول أن تتذكر شيئا لا تستطيع تذكره، الظلام الذي تراه عندما تغمض عينيك ولكنك أغمضتهما لكي تتذكر شيئا كنت تفكر فيه لا تعلم ما هو؟ شخص أحببته ولكنك لا تذكر ملامحه يوما كنت تبكي لفراق كل شخص وكل شيء اختفى ولن ترى سوى الظلام، أول شخص ستراه الآن سوف تتحدث معه وأنت أول واحد رأيته وجئت لأفرغ همومي عنده ربما سأنسى القليل منها.

انشغل بالي كثيرا عنك لقد اشتقت إلى نفسك القديسة كثيرا، ما بالها تظل بعيدة عني كل هذا البعد؟ ألا يكفيك أن تراني وحيدا أنتظرك في كل ليلة.

آسف يا صديقي لكن أصبحت لا أعرف نفسي حتى، أصبح صدري كزنزانة يهتز في أحد زواياها رجل عجوز على كرسيه على لحن أنين منبعث من ألم كاد أن يصبح لعنة لم تكتمل حروفها على أمل أن انتشلت جثته من ركام الأحلام، أحيانا الغرق في أعماق نفسك يكون أشد اختناقا من غرقك في الماء لأنه يجعلك بين خيارين، إما انتشال ذاتك من قعر الألم أو الطفو على اليابسة لتواجه غرقك بصورة أصعب وفي كلتا الحالتين النتيجة موجعة.

لا تقلق يا صديقي كل ما عليك فعله هو أن تحدق إلى قلبك جيدا، أن إله بكماله يقبع في قلب الإنسان.

أتذكر عندما كنا مراهقين ووعدتك حينئذ بأن أدور حولك كما تدور الأرض حول الشمس، لكن لا تستسلم فكلما أنرت لك جانبا درت هاربا فأضأت لك جانبا آخرا.

أنا آسف يا صديقي لكن أنا لم أقف بجانبك في تلك الأيام الخوالي كان لدي عذر أقبح من عذر.

لا داعي يا صديقي، دعك مما يحدث حولك وانظر إلى ما يحدث بداخلك فأنت هناك تعيش، لو كان بإمكانك أن تسكب لي كأسا من نبيذ ألمك وتدعني أشرب من وجعك حتى

الثمالة لعلك تستريح نحن لا نريد السعادة فعلا، فقط نريد جرعة أقل من الألم، أنا لم أمت لكن مات كل شيء في حياتي، أتعلم ليت كل ما يحدث معي كان حلما وكان وهما بعيدا، لعله كذلك أيقظني، لعلني أحلم على أية حال لو كان بمقدورك الابتسام، ابتسم ليس لأجلي وليس لأجل أحد فقط لكي لا تموت تعيسا، لا أكثر.

لا أستطيع أن أبتسم بعد كل هذا فقط يمكنني تجاهل العالم واختيار كتاب لأغرق به، سيأخذني إلى العالم الآخر سأكون بخير حينها وستكون النهاية سعيدة، يومئذ سأبتسم لأن الهدف الأول من وجودي هو أن أعرف أكثر لا أن أعمل أكثر أما الهدف الثاني هو أن أتألم أكثر لا أن أفرح أكثر، وأكثر شيء يجعلني في قمة البؤس والتعاسة هو عملي وكأنها لعنة، أعتقد أحيانا أن كل شيء في الحياة جميل، السماء والغيوم والطيور والضفادع والزهور وحتى المخلوقات الفضائية الوهمية وحتى الصخور، لكن الإنسان فقط هو الشيء الوحيد في هذا العالم القذر والقبيح وهذا راجع إلى أنه يحكم بدون أن يفكر، ويتخذ قرارات يعتبرها حكيمة ولكنها خاطئة لتلك الدرجة، والأكثر من ذلك يريدونك جسدا خاويا به صدى، الموت ومسك المنية يريدون لك قصرا من تراب في إحدى المقابر المهجورة سيتهيئون لزفة المأثم، يلبسون أقنعة النفاق ويسيرون في جنازتك بخطوات تكاد تشبه وقع الرقصات، قلوبهم ستعزف فرحا بينما تمطر عيونهم شيئا من زبد الحقد الملوث بالكذب، ولربما سوف يعزفون عند دخولهم إلى المقبرة خوفا أن تبصر ابتسامة عيونهم وأنت تغوص بعمق في سبات الموت الدافئ، وما إن يرفع فوقك اللحاد يتسارعون للاحتماء منك بين جدران بيتك وفي عيونهم خوف من شبح ذكراك ثم يتداولون كؤوس النفاق فيما بينهم، حتى يسافر الصبح فيتسارعون في خطى متسارعة إلى حانة قريبة ليسقون النسيان نبيذا يذكرهم أنك ميت وينسيهم أنهم ميتون من بعدك.

- في الواقع يبدو أنك لست جيدا اليوم يجب أن ترتاح قليلا يا سعد.

- حسنا أنت على حق أنا أحتاج إلى النوم، نوم عميق.

- آه سعد نسيت أن أخبرك بشيء، لا أريد أن أدرس في جامعة الجزائر، سوف أدرس عند عمتي في مصر، أرجو أن تتقبل الأمر أنا آسف لأنني لم أناقش ذلك معك فهذا مهم جدا.

- لا تتأسف أرجوك، بالتوفيق أتمنى أن تصل إلى مرادك وأراك غدا لا يهمني أين تدرس لكن المهم أن تحقق حلمك، ولا تستسلم.

- شكرا لتفهمك، أنا تغيرت. تغيرت كثيرا، آسف المهم هو أن توصلني إلى المطار وهذا أمرا لا فضلا.

- سمعا وطاعة، آمل أن تمضي الأمور بخير بالنسبة لك.

لقد أتى الوقت المنتظر للإقلاع وكان سعد معي طيلة الوقت، قد يتطلب الأمر عدة ساعات للوصول إلى مصر، كانت هذه المرة الثانية التي أركب فيها الطائرة أنا أخاف منها نوعا ما، المهم قد ودعت سعدا وهو يكره الوداع كثيرا لم يخبرني أي شيء بخصوص تعاسته، أي شيء فقط قال:

- عندما تصل اتصل بي.

أومأت برأسي فقط وشرعت في قراءة رواية «عقل وعاطفة» للكاتبة «جين أوستن» إنها رواية رومانسية بمعنى الكلمة ربما أفضل من رائعة «غوستاف فلوبير».

في هذا الليل روح تدفعك إلى الارتفاع والبوح والإفصاح عما بداخلك وما يدور بعقلك، ما يلهمك، مايزعجك، ما يحزنك، ما يسعدك، ما يدفعك للجنون فجأة، ما يخنقك في أعماقك وما يجعلك تسترسل الحديث دون أن تبالي للقوانين والمبادئ لأنها كلها تخنق هواء ونسيم الحرية فوق هذه الأرض، أفعل هذا حتى ولو كان بالقوة.

الليل روح الجحيم التي لا تنام ولا تدع أحدا ينام، أصبح الليل رفيقي الذي يمكنني الاعتماد عليه، بحيث معظم كتاباتي كانت في الليل فهذا الأخير هو مصدر إلهام لي، لقد كان المنظر رائعا من الطائرة وكانت الرحلة طويلة، لقد فكرت لو أن سعدا لم يوافق على الأمر واتهم ذلك بالخيانة وتركه في أصعب أوقاته ولكن ليس باليد حيلة، حينها لا أدري ماذا سأفعل.

مع كوني عبارة مزيج من الأفكار المشوشة، أحب هذا الأمر فكرة عدم تشابهك مع أحد، مجرد الفكرة تجعلك تشعر بالرعب والافتخار أحسن من فكرة تشابهك مع الجميع، في الحقيقة لقد شعرت بالشفقة اتجاه سعد المسكين مع أنه يكره هذا الشعور اتجاهه إلا

أنني لم أحسسه بهذا الشعور، لقد سئم من كره عادتهم، أصواتهم وتعبيرات وجوههم، جلس هامدا إلى أن رحل النور وانطفأت الشمس المؤقتة وعمّ الظلام الدامس، هنا بدأت أنفاسه تهدأ قليلا وبدأ يتعرف عليها أو بطريقة أخرى بدأ باستيعاب فكرة أنه تغير جذريا ولكنها أبت بأن تدلي بأسرارها فصاح غاضبا من عناد نفسه وقفز من شباك غرفته حيث ترتفع عن الأرض بقرابة ما يحميه من الحشرات وراح يجري بين الطرقات لا يسمع إلا صوت الضفادع وصياح الكلاب، كل تلك إلى الذي لا يحركه غريزة ولا تشتريه شهوة، يريد أن يصل إلى الجوهر نابذا كل ما يعلو فوقه، تجري قدماه وكأنها تحررت عن مفاصله كشق ريح الليل وبرودة الماء، تخرج من فمه آهات وكأن نفسه تحتضر قائلة:

- أهرب من كل تلك الأشياء لم أعد أطيق البشر وأيضا الكائنات التي تجري هباء، وأهدافه الواهنة.

وظل يجري حتى أنهكه التعب وتورمت مفاصل قدميه وهدأت الأصوات ووجد نفسه أمام المقابر حيث الموتى ولأول مرة يشعر بالدفء وكأنه وجد عشيرته التي ضاع منها قبل أن يلتقيها، فهنا لم تعد للكلمات وجود، لم يعد للضوء قيمة، هنا تموت كل الغرائز والشهوات، هنا الجوهر، هنا الوجود، هنا ما كنت أبحث عنه، هنا موطن، هنا تكمن نفسي، هنا أنا، لقد قال يوما:

- أشعر بأنني أخطئ كثيرا ولا أستطيع أن أمضي بعدما أخطئ يقتلني الشعور بالندم أحلم بالعودة إلى الوراء وتصليح الأوضاع لكن هذا لا يتحقق، أنجح أحيانا بالتناسي وأعيش بعض اللحظات الجميلة لكنني لا أنسى وسرعان ما أرجع إلى كآبتي ووحدتي وعزلتي وخوفي من نتائج أفعالي أنا فعلا مريض أتظاهر بالصحة وأنا منهك، أتظاهر برجاجة العقل وأنا مجنون أعاني.. أعاني، أتخبط في مشاعر غريبة، لا أدري فعلا ما الذي يحدث معي الشيطان اللعين يغلبني رغما عني ويدفع بي نحو الجحيم، ربما هذا لضعف إيماني، لا زلت أقوم رغم كل الآلام لازلت أحاول رغم اليأس وسأبقى على هذه الحال أسير تيارات الحياة اللعينة.

- لم يكن الصمت جوابي حينها قلت بعنف :

- حاول ما شئت أن تدرك معنى الكون، هدف الحياة، مصير الوجود، ففي النهاية لا طائل من كل هذا، سينتهي بك الأمر إلى شيء فالنتيجة حتمية مهما حاول الإنسان توضيح وتفسير ما سبق من تفاصيل وحتى يجد معنى واضحا لحياته التي يبدأها فهو غير واع من أين أتى وينهيها غير مدرك.

إلى أين سيذهب مهما حاول رسم لوحات تخيلية محكمة في عصر ما يفسر ويتنبأ من أين أتى، وإلى أين سيذهب، يأتي عصر لاحق تسقط فيه تلك اللوحات وتتحول إلى خرافات وأساطير لا يصدقها عقلك.

لقد عاد سعد إلى منزلي بعد أن هرب من مشاكله مع أمه ولا يوجد أحد هناك وقال أنه سيبقى فترة قصيرة أما بالنسبة لي لا فارق.

في ذلك اليوم المشؤوم تغير كل شيء وكأن أحدهم أمسك بسكين وغرسه في بطنه وجاءه الأمر عادي ولم يخف نوعا ما، لأنه لم يتوقع من ذلك الشخص أن يخيب أمله فيه وسيقول في نفسه:

- حبذا لو أبصق نفسي في طريق هلامي أعبر كالظل أمتنع من خلاله عن الاحتكاك بالأشياء كما في عالم الأشباح لأنني أحب مكانا شبيها باللاشيء وأبغض لعنة الزمن ولعنة الكآبة والحسرة فبسبب الزمن اندلعت المحرقة الوجودية، عكرت فيها صفو الطبيعة ومنها تعالت صرخات الإنسان اليتيم في هذا الكون الشاسع فما بقي للطبيعة من شكوى سوى أن تستغيث من عذاباته وتخريبه، ما يهمني فعلا هو أن أقبع عند لحظة موتي تحت عبودية الزمن، يتوقف كل شيء ويكف فيه الوقت عن سباقه معلنا شفقته، أصبح لا للاستمرار ولا لمحي هذه اللحظة، أصبح لا لتجاوز الأشياء لعلي أحضن لحظة إلا شيئا وأتشبث بها وأكون سعيدا عسى أن يسعفني الفراغ أثناءها لأحدق في عمق العدم أناجي محيط اللاشيء ليفتح ذراعيه ويقول :

- أهلا بالمنتصر الخارج من وسط الجمر الذي استطاع أن يفلت من عدوي اللدود ألا وهو الوجود لكي يدخل جنتي الأبدية جنة السلام العظيمة، أستنجي بالموت العدمي كخليل وفي، وكمعشوق مفرط أنا في حبه وخلافا عن الموت الوجودي المتقطع المقيت

والهالك، أفضله موت فجائي فراغي، موت ليس مصحوبا بوعي كوني بل موت مادي عبارة عن اختفاء مطلق ومحي خالص وحالة تفرد كاملة أنفصل فيها حتى لو كان بالإمكان عن التراب وعن لغة التهديد التي تهمس بها الديدان الطينية أذني مرارا وتكرارا، وعيي الجمعي الكوني أو المتجدد، موقفي، عدائي حولهما، لا أريد أحدا منهما لا أرغب بهما يا إلهي، انضمامي لإحداهما هو بمثابة مؤتمر عزاء لي لإعلان نكسة جديدة لحياة جحيم آخر أو خلق حياة أخرى ومهما تكن هذه الحياة الأخرى حاملة معها بذور الأمل والرغبة، ستبقى وليدا جديدا ذو إعاقة تنبئ بألم إضافي آتٍ لا محالة.

لقد قال سعد في نفسه:

- ربما تكون أمي قد سامحتني سأذهب لرؤيتها حقيقة اشتقت لها، أحيانا تتوقف الساعة ولا يتوقف الزمن، تتوقف الأفكار في ركن العقل التائه، في ثنايا هذه الحياة فلا تحتاج سوى لعناق وحديث بسيط مع أي كان ينسينا متاهات هذه الحرب في الحياة. اكتب يا قلمي ولاتجف، سأملي عليك كلاما بلون حياتي، اكتب بأن السنين والأيام السريعة تمضي دون أن تشعر بها، لا شك يا قلم أنها تجري سريعا، اكتب أن السنين مضت وانتهت وكأنها حلم لم ينتهِ وأننا قبل سنين كنا نعيش هذه اللحظة، تمنينا الفرحة والحياة السعيدة وحلمنا بالنجاح الوهمي، وقلنا بصوت جريء لن تكون هناك هزيمة ولا رجوع، وأن الفقير تمنى أن ينتهي الجوع، والحزين حتما سيفارق الدموع، والغني أقسم بأن المال سيهب عليه عاصفا كالرياح وبكل ارتياح.

اكتب يا قلم، أنني معهم تمنيت ودعوت في تلك اللحظة أن أعيش سعيدا، تحيط بي الورود وألا يفرقني عن أحبتي عين حسود، واكتب ها هي السنين وسنينهم مضت وانتهت، فهل عاشوا تلك الأماني وحققوا المطلوب أم عاشوا في سراب؟ واسألني يا نفسي ما سألتهم سأجيبك وبصوت فيه نغم شجي، في أيامي والسنين الماضية حققت جزءا من أهدافي عشت بقلب صافٍ مع أناس كالماس، أخبرهم يا زمني أن يجمعوا الآن الأماني ويأخذونك يا قلم ويكتبوا في ورقة كبيرة بيضاء كل ما وهبهم إياه رب السماء من فرح وبعد عن كل عناء، وفي خلف تلك الورقة ليكتبوا كل أمنية جديدة وكل أمنية باقية أرادوها أن تتحقق من قبل فربما

ستكون القادمة عطوفة علينا وليست كمن كانوا من قبل .

شكرا لك على كل ذكرى جميلة تركتها لنا.

شكرا لك على كل لحظة حب وحزن وسعادة وألم وهبتنا.

اذهب الآن يا قلم وارحل فبانتظارنا المستقبل ولا نعرف ماذا ستكتب....

يا رب، انقضت السنين التي عشناها لحظة بلحظة، لا أعرف كيف أقولها لنفسي ربما سأكذب هاته المرة لكن لا أستطيع أن أتحمل، أنا كذبت على نفسي كثيرا، ومن كان المتألم أخيرا هي نفسي، حسنا لا أعرف كيف أقولها لك لا أعرف كيف سأصيغ كلماتي وعباراتي، لم يعد ينفع أي شيء، طاولتي مليئة بأكواب القهوة الممتلئة نصفها وعلب دخان فارغة، علما أني مؤخرا أصبحت أدخن فأنا لست قويا للسيطرة على نفسي من هاته الأشياء بنظرات فارغة أراقب كل شيء وحده صوت أغنية من بعيد لا أعرف كلماتها، أسمعها لعلني أستأنس بها قليلا لكن طبعا دون جدوى الآن عرفت ما كنت أريد قوله وباختصار شديد أيامي مبعثرة، وأنا أعرف ما الذي أعنيه.

عند زيارتي لأمي قالت بنفس باردة، لقد كانت نوعا ما مريضة وهذا باد على ووجهها المصفر، قتلت أمي أحلامها لكي تعيش الواقع.

لقد قالت وببرودة ودموعها تكاد تسيل:

- ألم تعثر عليك الشرطة لكي تسجنك، ليكن في علمك أنني قدمت شكوى اتجاهك وتتضمن عدة جرائم وأنت تعلم ماذا فعلت أكثر مني على ما أعتقد، لا تقل أي كلمة للدفاع عن نفسك بخصوص هذا الأمر أنا أرجوك لأنني مللت من هاته التصرفات، قد أحس الابن بحنان أمه الغير المباشر اتجاهه، لقد ظل صامتا طيلة الوقت وبقي يتطلع في عينيها اللتين تحملان بريقا من الأمل، لقد أحس وكأنها تقول:

- هيا بني، أقنعني بأنك لست أنت، لست القاتل ولا السارق وإنما أنت البريء فقط اتهموك لأنك...

قال فجأة:

- أمي، اتركي تفاؤلك بي يعطر الأجواء لأنه سيأتي يوم أبرهن لك العكس، لكن لا أدري متى سيأتي هذا اليوم، فكل ما بوسعي أن أنتظر فقط، سأترك الأمر حينها للقدر لأنه الوحيد الذي أثق فيه واعلمي أني أحبك أكثر مما تتوقعين

قبلها على خدها ومشى، كان قد أخذ بعض حاجياته من المنزل، لم تسأله أمه حتى إلى أين هو ذاهب؟، وأين قضى أيامه الخوالي؟ أو أنها اشتاقت إليه وغيابه أثر عليها أو أنها احتاجته لم تتفوه بأي شيء، ربما هذا أكبر خطأ فعله عندما ترك أمه وحيدة وهي مريضة.

لقد دخل وأغلق الباب بعنف، لقد كان يشعر بالأسى اتجاههم، لم تثق الأم بابنها فكان سعد يعيش من أجل حقيقة أن العالم كله لا يستطيع أن يثق به سوى أمه، لقد تعلم شيئا أجمل ألا وهو أن أي أحد لم يخطئ كل حياته لا ليس لم يخطئ وإنما لم يرتكب خطأ فادحا في حياته فهو إنسان محترم وذو ثقة كبيرة بين الناس، لكن سيأتي ذلك اليوم الذي يرتكب فيه ذلك الخطأ ويصلحه أو يكفر عن ذنبه بطريقته الخاصة دون اللجوء إلى أحد إلى أن الناس الذين كانوا يثقون به ستتغير تلك الثقة سيحطون من كبريائك سيذلونك مع أنك أصلحت خطأك، لكنه سيأتي يتبعك إلى قبرك وبعد موتك سيقولون فلان سيء أو يقولون لا يستحق الموت حتى، فعوض أن يضعوا زهرة على قبرك يضعون...

لا تخافوا إن الله معي وأنا لا أحتاج أي أحد لكي يقف معي، سأقف مع نفسي وسأجد نفسي وقت الضيق.

على أمي بكيت بكاء ثكلى. فمالي غير دمعاتي شهود، كزقوم الجحيم دموعي نار، دموع خدشت فيها الخدود، أيا عطرا يفوح بثوب عاشق تشيع كالفراشة والورود ...لقد ذهب الذي سكن الديار، وبات اليوم في جحر اللحود، يا أمي تبا لها فلتسقط السرات.

مع كل هذا الظلم لا زلت أحبك يا أمي وأتمنى ألا تنسي أنني لا أستطيع العيش بدونك فأنت الهواء الذي أتنفسه، لطالما وقفت في صفي جلست القرفصاء وأنا أفكر في المستقبل، ربما سأسجن طوال الحياة، حينها لا أرى الحياة مجددا وأنا ما زلت شاب، لدي الكثير

ومن الأشياء التي أريد أن أفعلها ولقد دونت كل ذلك في ورقة:

- أن أذهب إلى لندن.
- أن أتزوج من فتاة شقراء وأحب لأول مرة.
- أن يكون لدي ثلاثة أولاد.
- أن آخذ أمي لتأدية الركن الخامس من الإسلام.

والكثير الكثير.

سأودع الحياة بطريقتي الخاصة، سأذهب إلى أعلى مبنى وأقف هناك، سيأتي في بال كل أحد أنني سأنتحر، لكن لا المغفلون الذين يملكون عقولا تحت سراويلهم هم وحدهم من يفعلون هاته التصرفات يستسلمون للحياة بطريقة قتل نفس بريئة ليس بيدها فعل أي شيء سوى الخضوع للقلب، سأقف هناك وأنا محتار مع سماعاتي والاستماع إلى أتعس أغنية تنسجم مع حالتي تماما سأرمي بالحجر المصفح وأرى إن تحسنت في ذلك، لم أفعل ذلك منذ أن كنت في الخامسة عشر من العمر، بقيت أتطلع إلى الشمس وهي تغرب كان في داخلي أمل بأنها ستشرق مجددا لكن مع الأسف لن تفعل ذلك ستغرب إلى الأبد، ورؤية النجوم والقمر بدرا وتخيل الأشكال من خلال النجوم، أحيانا أسد ذو ذيل فأر وأحيانا أخرى وجه دب قطبي في جسد قطة، لقد كانت أشياء غريبة غير منسجمة مع بعضها البعض البتة.

كنت أظن أن ذلك مضيعة للوقت مع تكرره في كل ليلة إلى أن نضجت وبقي معي ذلك الإحساس الغامض لن أعتبر ذلك مضيعة للوقت وإنما راحة بال.

لقد كانت ليلة سيئة وتعيسة كالعادة لا علينا لقد اعتدت على ذلك، لكن شعرت بالسعادة فأنا أحسد نفسي على نسي الهموم مؤقتا بهاته السهولة، المهم هو أن أخلد إلى النوم وأستعد ليوم عصيب...

طرقات باب عنيفة على الصباح الباكر

- من الطارق؟
- السيد سعد، الشرطة معك هلا فتحت الباب بدون اللجوء إلى العنف.

- حسنا، حسنا ما لكم تطرقون الباب بهاته الطريقة كدتم أن تكسروه.

- آه نحن جد آسفون، ماذا كنت تنتظر منا أن نقول: صباح الخير هلا ذهبت معنا إلى المخفر رجاء إن أردت يا سيد نحن شرطة ولسنا... المهم أنت السيد سعد دون شك.

- نعم، خير إن شاء الله.

مع أنني أعرف سبب مجيئهم، لكن تظاهرت بأنني لا أعرف أي شيء.

- لقد قدم أحدهم اتجاهك شكوى، تفضل معنا وستعرف عن الأمر أكثر.

- حسنا فقط سأغير ملابسي وسآتي لقد كنت أخمن كيف سأخرج من هذا المأزق وبمساعدة من؟ حتى الصديق الوحيد لي لا يتواجد الآن.

ذهبت معهم، أفف... لقد كان حقا يوما عصيبا وكأنني أقرأ المستقبل، لقد كان ذلك الأحمق جد قاسي معي أما أنا كنت أستهزئ بذلك الكلام الذي يوجهه إلي،

- أعطني على كل تهمة تقدمها لي دليلا،

لقد تذكرت أن الدليل الوحيد الموجه إلي هو الرسالة التي تركها لي السيد جميل، أتمنى ألا يحضرها زين هنا كدليل، أتمنى أن تستجاب أول أمنية أطلبها، وقال فجأة:

- أتريد الدليل، الدليل هو هذه الشكوى من أقرب الناس إليك ألا وهي أمك أليس هذا أكبر دليل، عذرا محمد هلا أحضرت لي ملف الشكايات.

- نعم سيدي، تفضل.

- انظر، إلى كل هاته الملفات، انظر إليها كلها، أنا في هاته المهنة حوالي ثلاثين سنة لم أصادف أي شكوى قدمتها أم اتجاه ولدها حتى أني أطلت في القبض عليك حتى تحققت من الأمر بنفسي، أتعلم ماذا كانت إجابة الأم، هي نعم وعيناها مغمرتان بالدموع، مع كل ذلك لقد كانت قوية...

- لكن مع الأسف هذا لا دخل له في القانون، أولستم أنتم الشرطة تتعاملون مع الأشياء بالقانون لا بالعاطفة، ليس لديك أي دليل اتجاهي، لذا من فضلك اتركني أذهب، والآن.

- ليس لدي ما أقوله لك، لكن أنت فعلا إنسان جاهل ما رأيت قط روحا أشد قسوة من روحك، كل المجرمين الذين عرضوا عليّ بكو أمام صورة الألم هذه، من أين أتيت بكل هاته الوقاحة؟ من أنت حتى تخاطبني بهذه الطريقة؟، لكن انتظر سأعاملك بالقانون إذن خذ هذه الورقة مكتوب عليها كل الشروط التي يجب أن نفعلها اتجاهك، وأجاب سعد وبكل برودة:

- أولا أنا لست بمجرم، وأنا سأوافق على شروط القانون.

لقد كان مدونا على تلك الورقة ألا يخرج من حدود البلدة مهما كانت الظروف والأسباب وأن يبقى في الزنزانة لمدة ثمان وأربعين ساعة، وظل يبتسم ببرودة وهو يقول:

- يا للحقارة سأبقى هنا لمدة يومين كاملين وهذا سيكون صعبا جدا بالنسبة لي.

عند خروج سعد من مكتب المفتش قال «شرطة حمقاء»

وأجابه المفتش قائلا:

- عديم الأخلاق، يا للعار أمك ليست محظوظة لإنجابك في هذه الدنيا ولا حتى الحياة فخورة بمجرمين أمثالك.

لقد تملكت سعد حالة غضب كبيرة، إذ أنه أراد أن يعود ويتشاجر معه ولكن تذكر أنه في مخفر الشرطة ولا يستطيع أن يفعل أي شيء سوى أن يرد على الكلام بعشرة أمثالها

- وكأن الحياة فخورة بمغفلين أمثالك.

إنها القذارة بأم عينيها، لقد كانت الأرضية جد متسخة لدرجة أنك لاتستطيع شم الرائحة الكريهة لمدة ثانية، والبرد القارس من جهة ثانية كنت أتقلب في صمت على جمر القلق أصبحت أعتاد القذارة والبرد وضيق المساحة وأصبحت أفكر في أشياء أهم من هذه التفاهات، لقد فقدت أفكاري، وسقاي كانتا ترتجفان، لقد أغمضت عيناي هاربا إلى الخيال وأفكر في كيفية حل هذه المشكلة، رفعت يداي إلى السماء راجيا من الله أن يساعدني في كربتي وما أنا إلا عبد مخلص لربه نوعا ما، صحيح أخطأت ولكن في الحقيقة ندمت ولقد اتهموني بشيء لم أقبل على فعله.

خلدت إلى النوم على الأرضية ، لقد كنت منهكا للغاية لذا لم أشعر بأي شيء، لقد كان معي في الزنزانة رجل سكير والخمارة تعتبر بيته ويدعى بـ: عمر السكران، والسبب الوحيد في جنونه هو أن زوجته وابنته الصغيرة توفيتا في حادث وهو الوحيد الذي نجا منه، لقد تمنى أنه لو لم يحيا، لقد كان رجل أعمال ناجح في البلاد وكان ذو نفوذ بين العامة لكن بعد الحادثة تغير جذريا وأصبحت كرامته وكبرياؤه في الأرض، لقد شرب الخمر حتى الموت ووصل به الأمر للانتحار والآن سيسجن لمدة سنوات أو سيأخذ إلى مصحة عقلية وهذا لاعتدائه على فتاة قاصر فهو بارد القلب أظن أنه اعتاد على الأمر بحيث أنه يتعايش مع السجن أو المصحة بطريقة عادية .

لقد كانت الثانية تمر علي وكأنها ساعة من الزمن، لقد كان «عمر» يحكي لي حكايات السندباد البحري ولكن بطريقته الخاصة، بهذه الطريقة أصبحت أعتاد مع أنه لم يبقَ إلا خمس سويعات، قضيت معه لحظات رائعة لا تخلو من الضحك، لقد كانت علامات السعادة بادية على وجهي مع أنني لم أراها منذ الأزل، لقد كان ثرثارا كثيرا لقد قال لي:

- أتعلم ماذا تحتاج؟

- لا، لا أعرف.

- أنت بحاجة ماسة إلى حقنة أمل، لكنك تعلم أنها إن وجدت حقنة زائفة وتكره أن تكذب على نفسك ربما كنت صادقا جدا في هذا العالم الكاذب والمزيف وهذا سبب معاناتك الأبدية، لكن هذا إن كنت صادقا حقا

قلت له في نفسي أنني لست كذلك لأنني أكذب على نفسي.

لم يكن صامتا كان يدرك أن فوضى الكلمات التي سكنت عقله لا يمكن لأحد أن يستوعبها، لم يكن يرد أن يتهموه بالجنون وأنا أقول له دائما الجنون عاقل ما لم يتكلم.

عندما خرجت من الزنزانة اتجهت مباشرة للمنزل لكي أغير أسمالي البالية، بعد ذلك سأذهب مباشرة إلى زين وأرجو أن أقنعه بأن يعطيني الرسالة في الأول لم أجده في المنزل، كالمعتاد فعمله يأخذ الكثير من وقته لقد انتظرته كثيرا، وأخيرا لقد أتى بعد وقت طويل من الانتظار كانت علامات التعب بادية على وجهه، عند رؤيتي مباشرة قال:

- أنت، ألم تقبض عليك الشرطة؟ آه بالتأكيد أنت ستخرج من مشاكلك دون شك أصبحت أتوقع كل شيء منك، حسنا بدون مقدمات، ما الذي أتى بك إلى هنا؟

- لقد أتيت فقط من أجل الرسالة التي تركها السيد جميل لي، هل من الممكن أن تحضرها الآن، أرجوك.

- آه، الرسالة إذن لن أعطيك إياها فهي الدليل الوحيد الذي أملكه ضدك، أتخالني غبيا!

- بالتأكيد لا...

- أرجوك يا زين أنا أطالبك بإحضار الرسالة أمرا لا فضلا فهي لي، لحد الآن أنا أعاملك باحترام.

- إنه يعاملني باحترام قال.. أنا لا أحتاج إلى معاملتك المزيفة فأنت مصدر عار، أتعلم معنى هذا أنت خائن .

- حسنا لا تعطيني الرسالة، شكرا وعمت مساء..

- نسيت أن أخبرك بشيء أعلم أنك لم تزر أمك، هي مريضة الآن وهذا كله بفضلك طبعا، لذا حاول أن تبتعد عنها أرجوك هذا من أجل صحة أمك لا أكثر.

انفطر فؤادي واضطربت حواسي واقشعر جلدي وارتجفت قوائمي أصبحت لا أقوى على الحراك ماذا؟ أمي مريضة وأنا...

يجب على أن أذهب لزيارتها مع الأسف هي ما زالت... ولكن هذا واجب كيف لي أن أرى وجهها، كيف؟ ربما ستتقبل هذه المرة ليتها تفعل طرقت الباب لكن دون جدوى لم يفتح أحد الباب، لقد أخذت المفتاح الذي تركته تحت فراش الأرضية بعد أن فتحته لم أسمع أي شيء وكأن لا أحد هنا فور دخولي الغرفة وجدت أمي مستلقية على الفراش غير قادرة على الحراك وتريد أن تشرب كأسا من الماء لقد اقشعر جلدي حينما رأيت ذلك المشهد.

- لا عليك يا أمي أنا سأحضره.

- سعد، سعد ما الذي أتى بك يا ملاكي لقد أتيت في الوقت المناسب.

- اعتقدت أنك ما زلت غاضبة علي.

- ومن قال إنني عكس ذلك.

- أفف، يجب على أن آخذك إلى المستشفى والآن، فأنت لا تتوقفين عن السعال.

- لا، أنا بخير.

- حسنا، لكن مع قليل من شوربة الخضار ستكونين أحسن.

- آه، لا أرجوك.

- أمي لا تعاندي.

قمت بإعداد الشوربة كنت سعيدا من جهة وتعيسا من جهة أخرى وحائرا، سعيدا لأن علاقتي مع أمي تحسنت، وحزينا لأنها مريضة للغاية ولا أعرف كيف أتعامل مع الأمر، حائر مع ورطة القتل والسرقة، المهم لقد أنهيت شوربتي الساخنة، لقد أطعمت بيدي أمي المسكينة وكانت تتصرف مثل الأطفال لم أمل من ذلك تذكرت حينها عندما مرضت وأعدت لي أمي الشوربة نفسها لكنني رفضت أكلها لأن مذاقها سيء وبقت تحفزني وهي تقول:

- إن الجبناء والضعفاء هم من لا يأكلون الشوربة وإنما الأبطال مثلك يأكلونها، إذا أردت أن تكون جبانا سأتوقف عن إطعامك.

- لا، لا أريد أن أتناولها بالطبع فهي جميلة وأنا بطل مثل الرجل الحديدي.

لو تعلم فوائدها لأكلتها كل يوم، مع أنني أكره مذاقه الفظيع، هه سعد المسكين لقد قال إنها جميلة، لقد كانت ذكريات سعيدة، أنهت أمي الصحن وأخذته إلى المطبخ لأغسله حينها تذكرت أن بطارية هاتفي منخفضة ويجب أن أشحنها الآن، بينما أنا كذلك حتى لمحت مجموعة من الرسائل، لقد كانت رسائل قديمة وكلها موجهة لي وشرعت في قراءتها واحدة تلو الأخرى وهذا هو نصها.

***الرسالة الأولى*:**

16/10/1992

عزيزي سعد المدلل:

لم أتمنَ البكاء يوما، لكن همّ الزمان أبكاني وأبكى من هم حولي تمنيت أن أعيش كما تريد نفسي ولكن عاشت نفسي كما يريد زماني أو قدري، كنت قادرا على فهم أي كائن إلا نفسي رغم معرفتي العميقة إلا أنني أعجز تماما عن اتخاذ القرارات البسيطة لتناقضاتي الكثيرة والمعقدة، دائما ماكنت أشعر وكأن شيئا ما ينقصني شيء أجهله حقا، لم كل هذا بحق الرب؟ ألم أقرر إغلاق باب مخيلتي من قبل؟ والآن ماذا؟ علي أن أكتشف ما ذاك الشيء، أعلم أنك تتساءل ما هو هذا الشيء؟

لقد قرأت يوما في كتاب لا أتذكر اسمه يقول فيه الكاتب أن طريق البيت وعر فيه حفرة كبيرة وأنا في كل يوم أقع في الحفرة، الطريق نفسها والحفرة نفسها ولا زلت أقع فيها. هكذا حالي تماما كنت أقع في نفس الخطأ كل يوم، أتعلم يا بني في النهاية ستشكر كل من أهملك كل من خذلك، كل من تخلى عنك، لأنه جعلك أقوى لعلك لم تفهم ومازالت تتساءل ماهو هذا الشيء؟ حسنا سأخبرك عندما كنت شابا في ريعان الشباب، اقترفت خطأ فادحا لا يغفر لقد تسببت في قتل نفس بريئة، كان فصل الشتاء في شهر يناير في ليلة رأس السنة، كنت أغسل الصحون حينها في إحدى المطاعم الفاخرة في قلب العاصمة، كنت بطيئا وفوضويا كانت تقع مني الصحون محدثة فرقعة حتى ينتبه رئيس الخدم ويبدأ بالشتم ويأمرني بكنس الأرضية والعقوبة هي أنه يزيد من وقتي في العمل لذا كنت أتأخر لفترة في الليل، أما أنا فكنت أبقى صامتا وصحيح كنت طيب السلوك مع الجميع ولكن حينما أغضب لا أعرف نفسي حتى كل ذلك الصمت ينفجر غضبا أحيانا في أمك المسكينة، ولكن بعد مرور الوقت أذهب لكي أطلب منها السماح، أما هي فقلبها الأبيض يسامح كل شيء فهي طيبة كثيرا، فلا تكن مثلي يا بني أنا أرجوك لأنني إنسان فاشل ولا أتحكم في أعصابي وإن صح التعبير لا أتحكم في نفسي فأنا مغفل وهذا لأنني قتلت ذلك الخادم الأسود لسبب تافه ندمت على هذا كل حياتي ولكن لم يظهر

بعد العذاب الحقيقي فهذه تسمى العدالة الإلهية إن فعلت خطأ ستحاسب في الدنيا والآخرة، المهم اخترت مهنة أخرى لكسب القوت ولم يعلم أحد بالأمر ولم أدخل إلى السجن.

الحياة كلها معقدة، كن رحوما أرجوك مع ذاتك ومع أهلك ومع أصدقائك ولا تفكر بالمثاليات فالحياة مصدر متاعب ولكن يمكن حلها، إذا صعدت إلى القطار الخطأ فيمكنك النزول والركوب في القطار الصح، إذا فقدت بطاقة السفر فيمكنك شراء بطاقة جديدة، إذا هربت زوجتك مع رجل آخر فهناك نساء كثيرات غيرها، فمشاكل الحياة يمكن حلها كن أنت كما أنت لا تقلد أحدا، أخرج ما في داخلك لظاهرك إن أحبك الناس فهذا جيد، وإذا خانوك فلا تحزن لأنك لم تنافق لأن النفاق أعظم خطيئة في الوجود، أنا لا أستطيع أن أسمي نفسي أبا لأنني أحدثك فقط عن الأشياء الغبية التي فعلتها أنا آسف المهم هو ألا تكون مثلي فقط انظر إلى المرآة أحب نفسك ستعلمك الحياة مع الوقت ستكون مثاليا .

أبوك «نزيم إيهاب»

***الرسالة الثانية*:**

16/03/1997

عزيزي سعد المدلل:

يقول أنطوان تشيخوف: «أنا لم أحب في حياتي ولا مرة، أولا كم كنت أحلم بالحب، أحلم به منذ زمن أيام وليالي لكن روحي كبيانو ثمين مغلق ومفتاحه مفقود».

كانوا يستطيعون كسر البيانو الثمين لأن المفتاح مفقود لا يجدونه في أي مكان وزمان فليس هناك حل آخر، للأسف سيكسر البيانو هذا لأن أنطوان لم يكرس حياته من أجل البحث عن المفتاح.

وأنا يا عزيزي أحببت أمك أكثر مما تتوقعه ولم أخن يوما وقلبي معها دائما كنت قد قلتها لك مسبقا مع أن قصتنا أنا وأمك أكثر مما تسمى قصة رومانسية لقد ضحينا بأشياء كنا نحبها من أجل خلود حبنا إلى أن يأتينا هادم الذّات ومفرق الجماعات، سأحاول جاهدا أن أبقي حبنا، أنت فضولي على ما أعتقد لأنني كذلك ويقولون أن الأب يشبه كثيرا أولاده في صفاتهم، لقد دونت كل ذلك على شكل قصة، كانت قد خبأتها أمك لك أنت وأختك لقراءتها، ربما هذا الشيء الوحيد الذي أُجيد فعله مستغرقا في عالم القصص لأنسى عالم الحقيقة، واقعي وواقع الذين أمثالي من ألقوا حتفهم من الحياة متمنين الموت في كل لحظة، كل يوم وعاشوا قرفهم بصمت لائذين ببيوتهم كي لا يرو أحدا ولا يسمعون بخبر، تماما كقطعة نقدية معدنية رميت بقعر مستنقع على سبيل جلب الحظ وعند استقرارها في الظلام البارد تحت كل ذلك العمق لم تعد تنفع لشيء.

عند البعض الهزيمة لها وقع أكبر من الربح، أسميها نشوة الخسارة حيث تخسر كل شيء وتتجرد كأنك عاري وسط صحراء قاحلة ومهما صرخت لن تتحرك حبة رمل واحدة للشفقة عليك، أن تصبح فارغا من كل شيء إلا نفسك، ألا تجد ما تحدث به أوراقك أوما تصرخ به في عقلك، خاويا كصحراء قاحلة، أنت وصمتك ممتلئة نفسك بالظلام الجفاف، العتاب، الخذلان، الوداع الثقيل، الأصوات، المرض، الحقيقة، الخيال، أنت وذاتك والحقيقة، ولا يعلم الحقيقة سواك أنت وتلك النقطة السوداء في آخر الردهة ستتوسع

وتتوسع وتصبح منها شيئا فشيئا والآن عليك مواجهة العملاق الهش بداخلك فهو على وشك التهامك و أنت لا تقاوم، أنت لا تقاوم، أبله أنت تقاوم الآخرين، تشيد سدودا بينك وبينهم ولا تسمح لأحدهم أن يعبث بعقلك أو أن ينتصر على قلبك رغم أنك في أمّس الحاجة، أنت تقاوم ذلك بقوة وبؤس ومحجرا تلك القوة الزائفة تخلق في نفسك الابتسامة المريضة وانتصار وإيقاع نغمة تكررها ورقصة وداع وظلام آخر داخلك تخبئه مع خباياك القديمة لتشتد تلك النقطة السوداء، وتثير انتباهك أكثر وأكثر ويبلعك ذلك العملاق بداخلك دون مقاومة وأنت صامت، لأنك تعلم أن الثرثرة لا تنفعك في شيء.كما لو حفرت في صحراء، كما لو غصت فيها وأخرجت مياهها، تكفي واحات بشساعتها! متاهة تقودني لها تفاصيل بسيطة جعلتني أنقش مساري للعودة عن جسدي، رموز تفكرني بالزمن القديم الذي حدث وأماكن رفضت ذاكرتي حملها، أكسر صخرة ذاكرتي أستخرج لؤلؤة من أعماقها.

ستكبر وسيتجعد وجهك وتصاب بالصدفية والروماتيزم وفقر الدم وهشاشة العظام ولن تجد من يؤخذك للطبيب، ستكبر لأن الإله أراد ذلك ولأنك شربت من خطاياك حد الثمالة، سيأتي اليوم الذي تتقيؤها مرغما ثم تجلس في البيت وحيدا ترتب هذا العمر المبعثر وتنتظر قدوم زائر غير محبوب لينهي مهزلة حياتك، ستبدأ حياتك منعزلا ثم تصبح اجتماعيا ثم اجتماعيا ثم منعزلا ثم منعزلا جدا، ولست أدري ماذا بعد.

الشيء المهم يا بني أن تبدأ حياتك ولا تبقى متفرجا فيها، والحياة أجمل إن أحسنت التصرف معها، أتعلم يا بني أن أجمل شيء أحببته في نفسي هو قناعتي بعيشتي وبكل شيء.

أبوك الغالي

نزيم إيهاب

أرهقتـه رسـائل أبيـه إرهاقـا شـديدا، منـذ أن بـدأ سـعد قـراءة الرسـالة إلى أن أتمهـا لم تنقطـع الدمـوع عـن الجريـان عـلى خـده، وحـين فـرغ مـن قراءتهـا ارتعـش وخفـق قلبـه وأحـس بتدفـق مـن الـدم يصعـد إلى صدغيـه.

حكاية حب:

لقد كانت فقيرة، مثله تماما كان يبلغ من العمر وقتها عشرون سنة، لم يدرك معنى الحياة كان شابا طائشا، قد مرّت به أزمنة تساءل فيها عن جدوى وجوده على سطح البسيطة، كانت فتاة ناجحة في حياتها، كانت أنوثتها طاغية عليها مع أنه خربها بحجة أنك لا تستطيعين إكمال دراستك الجامعية إن تزوجتك.

لم تتردد الفتاة على شرط السيد نزيم ووافقت فورا، فهذا الحب هو تضحية بشيء جميل لأجل شيء أجمل، قدر ما بني على تضحية قدر ما بني على الصدق هذا لأنهما تكلما بصدق ولم ينوِ نزيم يوما أن يفعل شرا فيها، هذا لأنه أحب أول فتاة اسمها فلة لا غير، مع أنّ سمعته مع الناس لم تكن جيدة لقد اعتبروه كلصّ مغفل يتغير من السيء إلى الأسوأ، بالتأكيد لن توافق عائلتها بزواج ملاك لشيطان، وذلك الشيطان لا يملك عائلة من الطبيعي سيبقى مشرّدا في الشوارع فالنتيجة تساوي إنسان ليس مثالي، إنسان لا يساوي شيء، لا يتحمل المسؤولية، ولا يستطيع...

لقد كان حبا من أول نظرة، أعجب بها ومع الزمن تحول ذلك الإعجاب لحب، عندما رآها قال لقلبه أنه سيتغير من الأسوأ إلى الأفضل هاته المرة، لقد ترك لحنا في قلبه حتى يتذكره أينما كان وكيفما كان.

بعد أن رفض بسبب ماضيه البشع عرف أن النضج هو فقط أن تشعر بالألم وحدك، سيمضي الألم لكنه سيمضي كمرور قطار حديدي فوق رأسك أو فوق قلبك لكنه سيمضي في النهاية، الحياة غدت مأساوية لم يتفاءل خيرا مثل ذلك الطفل عند أول لقاء له في الحياة، مثل ذلك الرجل العجوز عند آخر لحظة له على فراش الموت، هو الصدمة التي تبدأ وتنتهي، هو المتلهف في العزلة إن الواقع مؤلم.

لم تترك له خيارا آخر سوى أن... يخطفها إلى مكان لا يعلم به أحد وهي كل ما قالته للحفاظ على حبهما:

أنا لا أحبك! والدموع تسيل من وجنتيها، لقد ترك سبيلها وهي ماذا فعلت لقد أرادت أن تواجه الحياة ولأول مرة بشغف كونها عاشقة لا تستطيع الاستغناء عن طرفها الآخر

لقد واجهت والديها وقالت:

أنا أحبه ولا يهم الماضي في شيء لأننا سنعيش المستقبل الآن، سنعيشه بحب ما دمنا أحياء لا أستطيع العيش بدونه، طوال حياتي عشت مقيدة برأيكما كاختياري لشعبة الطب مع أنني أحببت المحاماة وكنت أدرسها خفية عنكما سأتخلى عن حلمي المزيف، أنا آسفة لكن لم تتركا لي خيارا آخرا سوى...

تفهمت الأم الأمر وتشاورت مع زوجها وقررا أن يتم الزواج بشرط أن تعيش ابنتهما كما كانا يتمنيان.

تزوجت فلة بنزيم على طريقة الحب، لقد كانا على وعديهما لقد بقيت فلة في المنزل دون نزاع وبقيت تقرأ روايات تاريخية وتتعلم الطبخ ففي الأخير ستكون أما، أما هو فكان على وعده في الإقلاع عن التدخين وهذا بفضل نصائح زوجته ففي الأخير تستطيع مهنة الطب النفع في شيء، بقي نزيم يتاجر بالبهارات لجلب لقمة العيش على الأقل لكي لا يموتا جوعا.

مذ ذلك اليوم أخذت تنظر إليه بفضول، فإن جعلها سعيدة لم تكن تطلب منه مزيدا، مستريحة على أفضل وجه لهذا العاشق الصموت القليل الصخب الذي لم يكن يطالبها قط بشيء، وكان يأخذها حين كانت تريد طوعا أن تأتي، إلا أنها كانت فقط مرتبكة بعض الشيء أمام هذا الرجل الذي لم تكن تلاحظ عيوبه.

عاشا حياة خالية من المشاكل نوعا ما وجمعهما القدر، وها هي الآن تنام بين أحضانه بعد أن كاد يقطع الأمل فأعطاه الإله جوهرة سيحافظ عليها ما دام حيّا.

- سعد، سعد أين أنت؟.

- أنا هنا يا أمي سآتي.

- لقد غبت كثيرا أين كنت؟ لا تقل إنك أعددت طبقا آخرا.

- هه لا يا أمي لكن عذرا على تطفلي لقد وجدت رسائل كانت من أبي وقرأتها عن طريق الصدفة.

لقد انقلب لون وجه أمي إلى الأصفر فجأة ولكنها أجابت قائلة:

- آه، رسائل والدك كنت أريد أن أعطيها لك ونسيت، إذن قرأتها على ما أعتقد أنه ترك رسالة لأختك أيضا وأنا أيضا تركت لك رسالة لكن لا تقرأها الآن سيأتي الوقت المناسب.

- لا تقوليها يا أمي «بعيد الشّر»

- لقد كتب أبوك رسالتين تعبران عن حياته بشكل خاص وعن مدى حبه لك فهو كان يحبك حبا جما، لكن مع الأسف كل من أحبهم قتلة مع أنه لديه سبب مقنع فلقد تعرّى من كرامته وكبريائه وأنت ما هو سببك أرجوك أخبرني ما هو...؟

لقد كانت تبكي وكان فؤادي يبكي معها وقلت:

- لننسى الماضي يا أمي، سأطلب منك طلبا فهو الأول والأخير سافري معي إلى فرنسا لإجراء العملية في أقرب وقت أنا أرجوك.

- أحقا، حقا ما زلت تردد هذا الهراء أتريد مني أن أتعالج بمال الحرام، أتفهم ما أقوله أتمنى أن أموت ألف موتة وألا أتعالج من ذلك المال ياللعار، عفوا ولكنني لم أربيك هكذا.

لقد استرخت ومازالت غاضبة بسبب ما قلت، ساد الصمت وفي هذه اللحظة لقد أتت أمي سكتة قلبية حادة لقد كان المنظر جد مؤثر لم أعرف ما الذي يتوجب على فعله سوى أن أنظر في وجه أمي بعينين باكيتين عجزت عن فعل أي شيء وفجأة تملكتني قوة، حملت أمي وخرجت بها طالبا من الله أن أجد أي سيارة تستطيع أن توصلني إلى المستشفى، الحمد لله لقد عمل معي أحدهم جميلا لن أنساه أبدا.

لم أفهم أي شيء من الأطباء لم يتكلموا معي حتى، اشتدّ غضبي وبقيت أردد كلمة أنا السبب في ذلك. أنا، لقد ندمت على كل شيء وأردت أن يسلب مني كل شيء سوى أمي لقد أشفقت عليها، أعلم أن الله يبتلي العبد الذي يحبه ولكن....

ربما هذا سيكون عقابي، لا لا سأتفاءل خيرا لا أستطيع العيش وحدي لا أستطيع بدونها.

آه، تذكرت يجب أن أتصل بها فهذا من حقها فهي أمها أيضا.

لقد اتصلت بأختي آية، آية أختي من الرضاعة متزوجة ومقيمة في لندن آخر مرة قامت بزيارتنا في العطلة الصيفية للعام الماضي ولم يأتِ معها زوجها لأنه كثير الأعمال بالرغم من أنها ليست أختي البيولوجية إلا أنني أحبها وأقلق لشأنها فكم تأسفني قصتها إلا أني لا أتذكرها حيث كان في عمري ثلاث سنوات وقالت أمي إن أبي وجدها أمام أحد أبواب المساجد وهي تكبرني بثلاث سنوات فمنذ أن عهدتها لم تتكلم عن ماضيها أمها وأبوها ومع مرور الوقت نسينا الأمر وبقي سرها الوحيد الذي لم يعرفه أحد، لقد أخبرت آية عن خبر أمي فتساءلت عن ظروف الحادثة لكن لم أخبرها بالتفاصيل قلت أنها أصيبت بجلطة قلبية، أمر طبيعي يحصل مع كبار السن، أرادت أن تأتي فور سماعها الخبر لكن لم أدعها تفعل مبتغاها وذلك لعدة أسباب.. أولا ستتعقد الأمور أكثر لو أتت ثانيا لا أريد أن أحملها كل المتاعب فهي طيبة ولا أريد أن أدخلها في هاته الأعمال بعد مشقة عظيمة من الحيل حلت دون مبتغاها بالسفر شريطة أن أعلمها بكل جديد فتوالت اتصالات أختي وأنا أطمئنها وأخيرا تكلمت إلى الطبيب فطمأنني محذرا فقال:

- صحة أمك جيدة مؤقتا

- ماذا تعني بمؤقتا...؟

- لا ندري متى ستأتيها سكتة أخرى ولكن سأخبرك بأنها ستكون أقوى من سابقتها لذا يجب عليك أن تودعها فربما...

- كان يجب عليها القيام بالعملية منذ مدة طويلة، لقد فات الأوان، أيمكنني أن أراها من فضلك؟

- نعم ولكن لا تتأخر.

فعندما دخلت لزيارتها تغلغلت الدموع في عيناي فلم أستطع إمساكها إلا أنني مسحتها ولم تكن حالتها تبشر بالخير فبدا وجهها شاحبا شحوب الموتى فقمت بعناقها ودعوت ربي ألا تكون آخر مرة، لقد ندمت أشد الندم على كل ما فعلت بأمي لحسن الحظ استيقظت شكرت الرب الذي منحني فرصة أخرى، على الأقل لكي تسامحني لا لتصحيح خطئي فهي كل دنياي فهي حب وحنان وغيابها يبث في الألم والحزن والظلام، قالت لي أمي وهي على فراش الموت

- أتعلم يا بني أنني خائفة أن أموت وأنا على معصية.

- لا، بالتأكيد لا أنت امرأة طيبة وليست لدي ولا ذرة شك أنك أقبلت على فعل شيء سيء.

- ولكن نحن بشر وكلنا خطاؤون...

بينما نحن كذلك خطرت ببالي فكرة قلت لأمي سأذهب ولن أطيل غيبتي عليك.

ذهبت إلى المنزل أعددت لها أجمل الأطباق التي تحبها من أرز أبيض على طريقتها الخاصة وحساء الشوربة بالجزر وكل ما اشتهت نفسها، عندما انتهيت من إعدادها خرجت لتوي قاصدا المستشفى وفي طريقي التقيت بشخص غريب فعندما سقطت عيناي عليه لا أدري ما الذي تملكني وقتها تذكرت أمر الرسالة لاأدري...، ثم التقيت بزين وقال:

- أرى أن لديك طرقك الخاصة لإصلاح علاقتك السيئة مع الناس.

- زين أرجوك لا ينقصني إلا أنت فلا تعطني رأيك وانسى الأمر وانظر للأمام.

- آه حقا أنا آسف يجب أن تستمع إلى صوت قلبك حين تتكلم مرة ثانية، لأنه لديك أخطاء كثيرة في تصريف الأفعال مع معرفة الضمائر، كيف حال أمك أحقا هي في المستشفى؟

- نعم هي في المستشفى أما حالتها ليست بخير

- حسنا إن شاء الله ستتحسن وسآتي فيما بعد لزيارتها، عندما وصلت إلى المستشفى كانت المفاجئة.

لقد. لقد لقت أمي حتفها، انهارت أعصابي وانهرت معها كما ينهار الولد الصغير عندما تنكسر لعبته، لم أعرف ماذا سأفعله حينها ما أسفت يوما لشيء حق الأسف، أمك لقد ماتت لم تسقط ولا دمعة من عيناي هذا لأنني فوجئت كيف لها أن تتركني وحيدا مع أنها وعدتني، لا أستطيع أن أعيش بدونها لأنها مصدر الضوء في حياتي لقد تركتني بين يدي الدنيا القاسية، بدونها لا أستطيع التطلع على الغد ويا أسفاه أنا أتذكر معاملتي الوقحة معها أرجو من الله أن تكون قد سامحتني، إن الحياة دون شيء ليحفزك على عيشها بسلام وحرية كأنها ليست حياة وإنما جحيم ويجب أن أعتاد على جحيمي

الذي ليس فيه أي منبع نور فهذا هو جزائي، لم أمشِ في الطريق الذي دلتني عليه أمي لقد تهت في ذلك الطريق مع أن أرضه مليئة بالشوك ولم أرَ ذرة نور في آخره والظلام حولي من كل جهة إلا أنني واصلت طريقي في ثبات وأنا أقول لعله الصواب لكن ما إن أتممت الطريق حتى أدركت ذلك يا أمي لقد تلقيت درسا في أخذ النصيحة.

إن هروبي هو كل ما يميزني، أنا مجرم فار من العدالة دائم التطور والتغير لا أعرف ثباتا ولا راحة، أو ربما أنا أفر من نفسي ، أشرب بكل ما أوتي من قوة وسرعة من عيشي ولا معنى لوجودي، نفسي تتلوى من ألم المعاني الغامضة وعدم المعاني السائدة أريد أن أكشف سر حياتي لماذا أنا حي، كيف ما زلت حيا ؟؟ربما لا توجد حياة دون موت، ولكن أمي حفزتني على أن أكون قويا في غيابها لا أخاف من أي شيء يقتحمني فأنا لست عظيما فكل إنسان ما قط عاش لكي يعرف الحقيقة بل لكي يضع له حقيقة مزيفة، الحقيقة هي الحقيقة فهو لا يريد أن يتورط في مشاكل وآلام لا حل لها لأنها بطبيعتها تخالف توقعات الإنسان ورغباته، ضميري يؤنبني فقط هذا الجزء الوحيد الذي أحس به، أصبحت لا أجد للحياة أي معنى، ولا أجد فيها أي قيمة أظنني قد سألت نفسي يوما فيمَ يفيد الحزن؟ والإجابة لا شيء ثم أن مجرى الأمور غالبا ليس بيدي سأكون ميزان الحياة لنفسي سأكون قويا وأضع الحياة تحت قدماي لأن لا أحد يسمعني لا أحد يمد يده لشرياني المقطوع كل شيء لهيب أنا الآن وحدي أنا الآن لا أحد.. غير كتلة لهيب متكئة على أريكة اللحظة الساكنة وهاته النفس التي تعيش بداخلي ستخرج من لا أحد، كأب عقيم انتظر سكون الثورة في داخلي، طارت هالة هدوئي من مكان لمكان، عائم خلفها من بصيص ضوء يصرخ إلي في رقعة صوت يلتهب.

أحترق وحدي أموت وأحيا من جديد لا أحد يسمع صوت تشعب جذوري لمقصلة السماء المحكمة غيري أنا، فلا أحد يستطيع أن يميز طعم هذا الموت السخي، كل شيء حولي يدعوني للثأر من نفسي لأنني أنا كنت المتسبب في كل شيء، شيء يدعوني أحرق كل رماد دخان وأبتلع نفسي، من دون ظل أصبحت كل شيء أصبح من غير ظل، تسببت في قتل أعز الناس في حياتي، لا أعرف ما هو الحل الآن ندمت وندمت ولا زلت أندم

ومع ذلك فإن الندم لا يفيد في شيء لأنه كان بعد فوات الأوان، لقد كانت الهواء الذي أتنفس، أختنق بمجرد رحيلها وهي طعامي فإن غابت أصابتني مجاعة وهي الماء إذا غابت أبتلى بالجفاف في حلقي.

بداية نهار جديد مع أنني لم أشعر بذلك لأنني لم أنم طوال الليل كنت أبكي تذكرت في هذا الصباح عندما قالت أمي لي لا تستسلم يا بني كلما تعثرت انهض وكلما أخطأت صحح ولكن لا تخطئ خطأ لا يغتفر وتنتظر من الناس أن يسامحوك وكلما فشلت حاول لأن الإنسان الفاشل هو من لا يحاول، وكلما أصرت الأيام أن تجعلك عبوسا ابتسم رغما عنها. تحول عالمي إلى فجوة من السواد، كل شيء أصبح قاتما، شعرت بالحزن والأسى قد سكن قلبي مع بقاء العالم الخارجي كما هو ولم يتوقف أنا حزين بالظلام والسواد داخل صدري أصبحت أفهم كيف يكون شعور المرء المنطفئ، سأرسم أمي كذكرى أبدية في قلبي ثم أدفن ذكراها إلى الأبد وأنشر الورود فوقها شيء يسمى بالندبة غير المرئية عالقة في أعمق بؤرة في الروح لكن أعلم يا أمي أنك قد غرست في فكري حتى وإن غفت عيناي أراك لا شيء سيعوضني حنانك يا أمي لقد سألتها يوما وقلت كيف تبدو الحياة لك يا أمي فقالت : كما تراها أنت ولكن بدون مرض لم أجد وقتا لأكبر فكبرت أمي نيابة عني، أمي قفي لا تكبري فالأيام ترحل من غير رجوع يا أمي ابقي كما أنت ، علمت يا أمي كيف للمرء أن يقف رغم انكساره، علمت كيف أن أتشبث في الحياة دون أن ألتفت للوراء فهمت أن الحياة تمضي ولن تتوقف الساعة على حزنك لتنتظر ساعة فرحك كما كنت تمسحين دمعتي.

قالت: قف دون استسلام وامضي في الحياة ولا تتوقف حتى وإن تعبت لأنها لن تطيل وإن حزنت سينبت الله بين أحزانك وردا، أمي هي مأمني وأماني وإيماني وكل شيء

أصبحت كل ليلة أنام على ذكرى أمي وأفيق كل يوم على صوت أمي وأحيانا ينكر عقلي رحيل أمي وكثيرا أحتاج إلى أحضان أمي، لن يبقى إلاحضن الأم عندما يخذلك الجميع أمي لن يأتي مثلها أبدا ولن يأخذ مكانها أحدا يؤلمني تعبها ويقتلني حزنها ويرهقني خوفها .

لقد اتصلت بأختي آية وهي اليوم آتية مع زوجها، اليوم سيدفنون الغالية في المقبرة المجاورة، لم أتحمل رؤيتها وهي تدفن لم أستطع أن أرى ذلك المنظر المخيف، سيكون مفهوم الموت والحياة لديك مجرد حفرة تراب لا أقل ولا أكثر ستتوب في الدقيقة الأولى وتعد نفسك بأن لا تقع في الأخطاء المرة القادمة سأبقى على الطريق المستقيم لأنك سترى جزءا من العذاب وهو فقدان أحب الناس إليك لم أكن أنتظر أبدا هذا اليوم العصيب يحطمني وكأنه سنة كاملة لم أستطع البكاء ولا النحيب لأنه لا جدوى منهما لقد بقيت أكرر فقط:«يا ليت الزمن يعود إلى الوراء وأصلح كل أخطائي على الأقل كي ترضى عني قبل موتها «بطريقة أو بأخرى لم أرضَ بقدري البائس، بعد تردد هذه الجملة وتنقلب حياتي رأسا على عقب.

وصلت آية إلى المدينة، وأول مكان ذهبت إليه أولا وهو المقبرة، عندما وصلت عانقتني بشدة وبالرغم من أن كل الحشود قد اختفوا إلا أنني بقيت وحدي فلو كانوا معي لكنت قد تحسنت كثيرا، لكن أتت آية لعلها ستخفف من أوجاعي لقد علمت من أختي أن قلب الفتيات جد هش ورقيق أجهشت بالبكاء كانت تبكي مصدرة أنات خافتة خلتها لن تتوقف البتة، وبدأ أنينها وتنهدها يخفان وقالت:

- لم أفهم أي شيء وبقيت تستفسر مني وتقول متى وكيف حصل هذا أخبرني يا سعد أنا أرجوك.

- إن الأطباء قالوا أصابتها جلطة قلبية مضاعفة ولم يتحمل قلبها ذلك ولم يعرفوا السبب توقف قلبها في تلك اللحظة وعندما عدت كان قد فات الأوان

- لماذا أين كنت؟ أنا كنت أحضر بعض الأطباق الشهية التي تحبها أمي فهي لم تأكل شيئا من أكل المستشفى لذا قررت أن أطبخ لها، شكرا يا سعد قد اعتنيت كثيرا بأمي في غيابي لقد قلت لنفسي أنت لا تعلمين يا أختي أنني أنا من كنت العلة الكبرى على أمي فهي بسببي ماتت لا يوجد سبب آخر بالمناسبة يا أختي أنا جائع كثيرا فمنذ يومين لم آكل شيئا لنذهب إلى المنزل.

- صحيح أنا اشتقت كثيرا إلى الديار

- أين محمد؟

-محمد لديه غرض هام في المدينة وسيأتي بعد أن ينتهي منه

لقد استلقيت على الفراش بغية التأمل في المستقبل، بينما آية في المطبخ، آية فتاة ناجحة سعيدة عكسي تماما أنا إنسان فاشل وتعيس لا يتقن شيئا سوى الأشياء العديمة الفائدة لقد بقيت أتأمل في البيت لقد أصبح موحشا في غياب أمي وأصبح المنزل مكانا للنوم فقط أتمنى أن أختي ستطيل عندنا لأنني لا أستطيع أن أبقى وحيدا سأعتاد على ذلك أعلم لم أتصل بنادر أبدا، كيف سأخبره بأن والدتي قد توفيت؟ لقد استعرت هاتف أختي للإتصال به.

لقد اشتقتك كثيرا كيف حالك؟

- آه.سعد لم أعرف رقم الهاتف ليس من عادتك أن تتصل بي من رقم غير رقمك

- إنه لأختي

- آه.آية عندكم، بلغ سلامي لها كيف حالك يا سعد نبرة صوتك لا توحي بالخير أخبرني ما بك؟

- قصة طويلة يا صديقي لا أعرف!

قال إنه سيأتي غدا، سيكون هذا جيدا بالنسبة لي، سأرتاح نفسيا بمجرد أن يبقى معي أما آية فلم تبدو جيدة، إلا أنني عرفت أن علاقتها مع زوجها سيئة لكن أنا أعلم أنهما يحبان بعضهما البعض.

- اخلد للنوم ولا تكترث لما قد حدث...

- حسنا يا أختي أحلاما سعيدة.

لم يأتنِ النوم ولا هي، التقينا بالمطبخ بحجة العطش.

- في الحقيقة يا أختي أريد التكلم معك في موضوع هام، لقد رويت لها كل شيءعن سرقة المال واتهامي بقتله، لقد صدمت أختي بما أخبرتها

- أنت بلا روح، ولا شيء إنساني فيك، أتغيرت لتلك الدرجة؟ أصبحت لا أعرفك، كيف لك أن تفعل هذا بشخص وضع فيك ثقته الكاملة؟.

- كفي عن ذلك أنا أرجوك

- أين المال؟ أسلمته للشرطة؟

- لا، مازال بحوزتي، كان هذا من أجل مصلحة أمي لا أكثر، أحببت لها الخير فقط، أردتها أن تبقى وتخرج من هذا الجحيم الذي كانت فيه.

- أتعني ذلك الجحيم؟ لا إنما الجحيم هو خيانتك تلك خيانتك لأعز الناس لك أنت خنت نفسك، حتى أنك لم تفكر في سلبيات الأمر، هذا هو خطؤك ليس باليد حيلة

- انسي الماضي فلنعش الحاضر ونفكر في المستقبل

- ليس بهاته السهولة يا سعد أنت لم تخبرني ما الذي ستفعله بالمال بعد أن توفيت أمي أرى أنك هربت من سؤالي.

- لا هذا لأنني لم أفكر في الأمر تذكرت الرسالة التي كتبها السيد الجميل «رحمة الله عليه» أختي أعلم أنك ستتعجبين حينما أجيبك عن سؤالك.

- نعم أنا أسمعك

- لقد ترك السيد جميل رسالة لي بعد موته قال فيها أنه ترك لي ميراثه، ولكن شريطة...

- ماذا؟!

- مع أنه يعلم أنك خنته، لماذا يا سعد كيف لك أن تفعل كل هذا بشخص وضع كل ثقته بك؟.

لقد نظرت إلى الساعة كانت تشير إلى الساعة الرابعة فجرا فقلت لأختي وأنا أتثاوب هيا، لنأخذ قسطا من الراحة اخلدي إلى النوم...، ابتسمت وراحت إلى مخدعها، أما أنا لم أستطع النوم كنت أتظاهر أمام أختي بذلك لكي ترتاح قليلا لأنها أتت من مكان بعيد ولقد فكرت بأن أبدأ العمل غدا في المقهى حتما، عليّ بيع منزل السيد جميل أم لا؟ سآخذ القرار فيما بعد سأتشاور مع أختي في هذا الأمر فهي حكيمة في مثل هاته المواقف سيكون يوم جديد، وجه جديد ، تفكير جديد وتسريحة جديدة وأضع نظارتي القديمة التي لم أعد أراها على وجهي بعد أن غادرت الجامعة، لقد تذكرت مأساة الجامعة لو أنني ربحت المسابقة لما كنت أفعل كل ذلك الشر في نفسي ومن هم حولي بسبب تلك المدعوة إلينا، لكنت الآن في أحسن حال لقد اشتقت إلى كل شيء رحل عني خاصة أمي

خاصة أمي يا أغلى شيء في الحياة لا أستطيع أن أنساك لا أحتاج لصورك القديمة لأتذكرك ملامح وجهك مدفونة في قلبي وهذا البيت هو الذكرى الكبرى لك لكي أتذكرك فكل شيء في هذا البيت الصغير الشبيه بالكوخ يذكرني بك لأنك أنت كنت زهرته وقلبه النابض بك يحيا وبك يموت .

بداية نهار جديد حتى الإفطار مختلف تماما على العادة، لقد راحت أختي لكي تشتري لنا جبنا وزيتونا وبعض العصير، ذهبت إلى المقهى إذ بها تنادي قائلة:

- إن احتجت إلى شيء فأنا هنا، آه. ولا تنسَ أن تذهب للمطار وتستقبل صديقك نادر على الساعة الثانية زوالا لا تنسَ.

- حسنا يا أختي سأفعل ما بوسعي لكي لا أنسى، ها هو المقهى ينتظرني.

ولقد كانت المفاتيح بحوزتي لطالما كانت معي، لقد كان المقهى جد متسخ مع ذلك شرعت في تنظيفه واستغرق مني وقتا طويلا، في الأول قمت بتحضير القهوة السوداء ثم الحليب فالشاي الأخضر، لقد ذهبت إلى بائع المواد الغذائية واشتريت بعض الحاجيات. عدت إلى المقهى، ماذا عن الحلوى ؟!لا أدري من أين كان يشتري سيدي الحلويات لقد اتصلت بأختي فأخبرتها بأنني اشتريت كل الأشياء عدا الحلوى التي كان يقدمها في المقهى لم أعرف من أين أشتريها فهي فريدة من نوعها بحثت عنها في كل الأرجاء ولم أجدها، ما الحل يا أختي؟!

- حسنا. حسنا اهدأ قم بوصفها لي ربما أعرفها فأنا فنانة في إعداد الحلوى وقد شاركت في إحدى الحصص التلفزيونية في لندن وحصلت على المرتبة الثانية لا تتذكر لقد إتصلت بأمي لكي تراني في التلفاز أما أنت فكنت في الجامعة...

- حسنا الحلوى شكلها دائري ولها ثلاث طبقات كما لها ثلاث ألوان مختلفة أما العجينة فهي هشة بذوق الليمون.

- آه عرفت عن ماذا تتحدث.

- كنت على يقين بأنك خبيرة بالحياة، أختي... لدي طلب ثاني حسنا ما هو هل من الممكن أن تعدي الكعك؟ فالمقهى مشهورة بكعكها الجميل .

- حسنا طلبك تاج فوق، رأسي مامن طلب آخر؟

- لا شكرا

- آه لقد نسيت، كما اعتقدت

- ماذا نسيت؟

- لم تتذكر يا أخي المغفل. كم الساعة الآن؟

- آه، أنا آسف يا أختي سأذهب حالا لولاك لم أعرف ماذا سأفعل؟، لدقيقة استسلمت وقلت أنني مغفل لا أفيد حتى في إدارة مقهى بسيط لوحدي، لقد هرولت إلى المطار فجأة لقد دخل زبون إلى المقهى وقلت وأنا مسرع:

- آسف سوف أغلق

ولكنه لم يكن مجرد زبون لقد عاش قصة مأساوية، كيف ستكون حالتي؟ سأكون إنسانا ناجحا، سأكون مثاليا، أم العكس؟.

- شكرا على التأخر سيد سعد.

- آه نادر،

لقد عانقته بشدة، لقد اشتقت له أكثر من أي وقت مضى، وقلت له بكل حسرة وتأسف عظم الله أجرك يا صديقي.

- ثبت الله أجرك، شكرا لقد اشتقت لك كيف أحوالك وماذا فعلت في كل هذا الوقت في القرية؟

- هيا بنا إلى المنزل وسأحكي لك كل شيء مر معي حسنا سأوصلك إلى المنزل لترتاح ومن هناك سأذهب إلى المقهى لدي الكثير من الأعمال وفي الليل أنا أدعوك إلى المنزل لتناول العشاء.

- حسنا ما من مشكلة.

لقد ذهب سعد إلى المنزل ليأتي بالحلوى والكعك لأن آية قد أنهتهما دون شك، لقد بدأت بإعداد العشاء وخرجت أنا مرة أخرى لأشتري بعض الحاجيات.

لقد كانت رحلة طويلة وأنا جد منهك سأتمدد على الفراش وأقرأ رواية رحلة ابن فطومة لنجيب محفوظ وسأحضر عصير البرتقال المفضل لدي وأقوم بعد ذلك لأستحم وأنشف شعري الطويل وبعد ذلك أنظف المنزل فهو في حالة يرثى لها لا أحد كان يهتم به لقد حل المساء.

- شكرا لقد كان العشاء جد لذيذ، حقيقة لقد اشتقت لهذه الأطباق فلدي عدة شهور لم آكل أطباقا كهاته فهناك أنا لا آكل إلا أكل المطاعم البارد البائس لقد اشتقت، وقال سعد بشوق:

- هيا يا نادر لنتبادل أطراف الحديث واسرد لي عن حياتك في تلك المدة الطويلة، والله اشتقنا لك كثيرا

- وأنا أيضا يا غالي لقد تحدثنا وتحدثنا وبرفقتنا الشاي والبعض من الفول السوداني لقد ذهبت إلى المنزل لأنام فكان يوما شاقا بما تحمله الكلمة من معنى لقد واسيت سعدا لوفاة أمه فقد كانت فجأة، فهذا هو قضاء الله وقدره ليس بوسعنا تغيير العالم بأكمله، كان هذا السهر غير المريح ألبسنا وجوه الموتى.

بينما كانت آية تجفف الأرض وتمسح الغبار إذ بها تجد رسالة موجهة لسعد أو بالأحرى وصية موجهة لسعد لم تقرأها من باب الخصوصية وقالت متشوقة وبفضول:

- يا سعد انظر ماذا وجدت، رسالة من أمي، تذكر سعد ما قالته أمه قبل أن تموت «وأنا أيضا كتبت لك رسالة لكن لا تقرأها إلا بعد أن...»

- شكرا لقد نسيت أمرها تماما أتريدين أن نقرأها معا

- كما تريد فأنا لدي فضول نحو ذلك وماذا كتبت لك أمي؟

- أنت الوحيدة التي أستطيع أن أشاركك كل شيء لأنني لم أخبئ عنك أي شيء لأنني لا أملك منك اثنتين فأنت كلك ثقة.

حسنا لقد خدعتني تقريبا سأقول كل الكلمات الموجودة في رأسي، أنا مرهقة للغاية من الطريقة التي سارت بها الأمور، لقد صدمتني لكن بعد كل شيء فعلته، كان عليك أن تتعلم كيف تسير في المحن كان عليك أن تؤمن بقضاء الله وقدره وكلانا يعرف الحقيقة التي أخفيتها، أنا فقط سوف أقول لك أتمنى لك الخير في حياتك، أتمنى أن تكون في مكان ما تصلي، أتمنى أن تتغير روحك من الأسوأ إلى الأحسن، أتمنى أن تجد سلامك منحنيا على ركبتيك، أنا لست فخورة بما أنا عليه الآن، ولدي الوحيد لقد فعل وفعل والأمر كله سيء، لقد كنت مخطئا يا بني وأتمنى أن تندم على فعلتك لأنك فيما بعد ستعرف مدى خطئك، أنا لست فخورا بك يا بني يا للعار! أهذا الخطأ الذي تعتبره أنت صغير فهو يفصل بيني وبينك وينهي كل شيء، أصبحت لا أرى بوضوح ولا أسمع بوضوح، أتلعثم بالكلام عند الحديث مع الجيران، حالة من الفصل تصيبني وكأن جدارا عازلا يفصل بين حواسي وبين الأعضاء الملموسة والمسموعة، هذا الخطأ الشنيع جذبني إلى ثقب أسود أو ربما جعل مني ثقبا أسودا، صدقني يا بني أنت كنت الهواء الذي أتنفسه، أختنق بمجرد رحيلك أنت كنت الطعام الذي آكله بمجرد رحيلك أموت جوعا، أنت كنت الماء بمجرد رحيلك أصاب بالجفاف في حلقي، ذلك الكلام الذي قلته لك من قبل كان كذب لأنني كنت في حالة غضب لا أكثر في كل الأحوال أنت ولدي وستبقى ولدي وأنا يا بني أوصيك على أختك آية رفقا بها وبنفسك كونا لنفسيكما كل شيء لأنكما إخوة رغبت في أن أعيش مدة أطول لأنني لم أشبع منكما إنها مجرد رحلة وأنا ذهبت ولم أعد وستذهبان يوما إلى تلك الرحلة ولن تعودا إلى ذلك العالم.

لكي لا أنسى لقد ترك والدك رسالة أخرى لآية لا أعلم ما الذي فيها لأنني لم أقرأها إن الأمر جد خاص ومهم بالنسبة لها ستجدها في الخزانة جانب المكتب، الشيء الوحيد الذي أعرفه أنه كتبها قبل أيام من ذهابه المهم انتبها لنفسيكما والوداع .

لقد انصدم الإخوة إيهاب من وصية أمهما خاصة سعد وكأنه يقول في نفسه:

كم أتمنى أن أوقف ذاكرتي يوما وأنسى الماضي والحاضر ولا أفكر إلا في المستقبل، أنسى الألم والحزن والتعاسة والكره ووجودي البائس في بحر الظلمات، أنسى كل خيبة عثرت قلبي ومزقت ذاتي بسكين الواقع، وبوقوف الذاكرة تتوقف نفسي عن العمل كم أتمنى هذا المشهد بحيث عيناي لا تريان شيئا، وأذناي لا تسمعان شيئا، فمي لا يتكلم عندما لا أرى القبح والتعاسة ولا أعبر عن الواقع، أتمنى أن أصبح منفيا من الوجود في ظل تتوقف عقارب ساعتي، موجود في زمن واقف لا يتقدم، لا ساعات ولا دقائق ولا حتى ثواني ، أشعر بوجودي ولا وجود إلا السواد يحوم حولي لا أعرف كل شيء عن الحياة ولا أعرف حتى نفسي ولا أستطيع أن أسأل نفسي من أنا.. أنا في بئر عميق ومظلم النفي في اللاوجود في عالم أسود خارج عن عالم الأرض ولا أدري أين؟ .

أتمنى أن أكون العدم في وجود خال من الوجود، لا كينونة ولا هدف، أنا أسير كالرياح الهابة القوية لا تعرف وجودها ولا تعرف أين تسير، أتمنى أن يحدث كل هذا الآن من قساوة الواقع وغاية الأحلام أو الواقع المزيف الذي كنت أعتقده مزيفا أصبح حقيقة، يا ليت الحياة أيقظتني من لا وجود وترجعني إلى الوجود وكأنني خلقت من لا شيء وتجيب عن سؤالي لمَ أنا موجود؟ ولماذا هذا العذاب؟ أعرف أنها ستقول إن هذا ليس عذاب أنت قررت أن تتعذب من دون أن تشعر بما تعيشه، ولكن أنت لا تشعر بذلك استرخي وانسى هاته الأحرف الأربعة وعش حياتك كما هي ولا تفكر في أن هناك شيئا يسمى العذاب وسترى الحياة الجميلة بكل ما فيها يا ليت. يا ليت يحدث كل هذا الذي تتكلمين عنه لكن لا أستطيع.

هذه أول مرة أرى فيها سعدا تعيسا لهاته الدرجة أما أخته فلم تفهم شيء رسالة؟ أبي؟ أنا؟ لقد ذهبت لمخدعها وهي تبكي لماذا يا الله إن الأمور كل يوم تتعقد على أخي سعد وأنا مكبلة الأيدي لا أستطيع أن أفعل أي شيء.

هي لم تعلم أن الأمور ستتعقد عليها أيضا.

بداية نهار جديد تعيس كالعادة لم أستيقظ باكرا هذا لأنني كنت جد مرهق لقد استيقظت واشتريت قهوة وبقيت أتأمل في السماء فكرت أن أذهب إلى المقهى الذي يعمل فيه سعد سأطمئن عليه فأنا لم أشبع منه.

لا أعلم حتى ماهي مشاريعي المستقبلية لكنني كنت على ثقة أنني سأعود إلى القاهرة، الشيء الوحيد الذي لا يدعني أعود هناك هو عمتي لقد طعنت في السن وبدأت تخرف، المهم سأذهب إلى سعد لأرى ما الذي يفعله ثم أذهب إلى الشاطئ لكي أريح أعصابي.

حينما دخلت المقهى وجدت سعدا لوحده، لم يكن يوم سعد فقد كان كئيبا وجدته تعيسا لدرجة أنه لم يرني حينما دخلت، لم ينتبه إلى وجودي لقد عرضت عليه أن نذهب إلى الشاطئ لكنه لم يرد لقد قال إنه يريد أن يبقى لوحده لكنني لم أتركه أردته أن يفرغ كل همومه في، لم أتوقع أن سعد يقول كل هذا الكلام بسهولة اعتقدت أنه مريضا نفسيا

- تخيل يا نادر أن تكون تائها طوال حياتك، متعب، عصفت بك رياح الحياة وأخرجتك عن وتيرتها وأصبحت غريبا عنها وعن سكانها وأثناء سقوطك ستجد من يرونك ويرونك كما أنت ويحبون اختلافك لأنهم أيضا يشبهونك ربما مطرودون مثلك من رحمة الحياة ستجمعكم سخافات كثيرة وستجمعكم أكثر آلام حفرت بداخلكم، ستبكون معا ومن ثم تتعالى أصوات ضحكاتكم اللامبالية بشيء ورغم المسافات اللعينة واختلافاتكم إلا أنه سيظل هناك رابط لن تفهموه وأفضل ألا تحاولوا فك رموزه، فأجمل ما في هؤلاء الأصدقاء هو شيء تجهله ولكنك تشعر برابط قوي معهم وكأنها لعنة أصابتكم ولكنها لعنة جميلة آخذة.

لقد ذهبنا إلى الشاطئ بقينا صامتين لم أرد رؤية صديقي في هذه الحالة في ثاني يوم من مجيئي، لم أرد سؤاله عما حدث أو ما سيحدث أفهمه أكثر من أي صديق آخر إن سألته سأزيد من همه لذا بقينا على هاته الحالة، نرمي بالحجر في البحر، لقد حل المساء ودعته وذهبت للبيت كنّا قد تناولنا الغداء على الشاطئ لذا لم تكن لي شهية للأكل مع أننا لم نأكل شيئا فقد اشترينا أزهار النرجس من إحدى العجائز فكانت تبيع كل الأنواع فدعت لنا بالخير مع كل تلك الحماسة سعد لم يتخلَ عن حبه للأزهار،

أما حديقته فقد ذبلت تماما، بعد مرور كل تلك المشاكل عادت آية واعتنت بها من جديد واشترت كل اللوازم لكي تعود كما كانت وهي أيضا تحب الأزهار، لقد توارثوا حب الأزهار، وصل سعد إلى المنزل ووجد أخته في حالة ترثى لها لدرجة أنه نسي كل شيء يقولون عندما يصيبك همّ اذهب إلى من هو أكبر منك سيزول همّك» لم تنطق بكلمة مع أن سعد ترجاها ويقول وهو خائف :

- ماذا هناك.. ماذا يحدث؟

- ماذا يحدث أهذه هي الحياة؟ أليست الحياة إلا هذا؟ هل تراها ستستمر على هذه الوتيرة؟ أتعلم يا أخي أنني أشعر وكأن أنفاسي تتقطع وأنا أفكر في المستقبل والحاضر، إن عالمي كما يخيّل لي يموت وإني لا أجد ألما لهذا الضيق أو أننا عديمي الحظ، إن حياتنا ليس لها معنى ولن أجد ما يعوضني عن هذا الفراغ الذي بداخلي لأن هذا الفراغ لا ينتهي كأنه كون يستمر في التوسع طالبا مني ملأه دون توقف أنا لا أستطيع التفكير لا أستطيع التفكير في أي شيء.

وقالت بصوت خفيف:

- أتذكرت تلك الرسالة التي أشارت عليها أمنا في الرسالة

- نعم تلك الرسالة التي كتبها أبي لك ماذا فيها

- خذ واقرأها يا سعد ستتعجب لم أعد أفهم أي شيء لماذا خبأ أبي كل هذا عني لم أعد أصدق لماذا؟!

- بالله عليك لماذا كل هذا العبء، لقد قرأ سعد الرسالة بتأني وبصوت عالي اقشعر بدنه.

عادت آية من المقبرة إلى المنزل، أما سعد فمازال مشغولا بعمله لدرجة أنه لا يملك متسعا من الوقت ليتناول الغداء أصلا لا يمتلك شهية لذلك، لقد ملت آية من البقاء في المنزل لذا أعادت قراءة رسالة أبيها وتمعنت فيها كثيرا هذه المرة، لم تفهم ماذا قصد بأعدكما إنني سأعود مجددا« لقد أعادت قراءة العبارة عدة مرات لكن دون جدوى وقالت في نفسها «لقد كتبها منذ سنين والله أعلم ما الذي قصده « لقد خلدت إلى النوم لقد كان يوما عصيبا، لم ترَ أمها الحقيقية ولا مرة في حياتها، وهي تفكر عاطية الأمر فوق اللزوم، طبيعي فحب الأم غريزة.

لقد كنت ألبس لباسا أبيضا، وشعري كان شديد السواد وطويلا، ولقد كانت البقعة التي كنت أجلس فيها لونها أبيض ولكنها تميل إلى السواد، بقيت أبكي وأبكي ومع ذلك بقيت مبتسمة، لمحت امرأتان تلبسان اللباس نفسه ورجل معهما، من هو؟

أما الجهة الشرقية فلمحت رجلان أحدهما يلبس الأسود والآخر الأسود، ولكن لونه مائل للبياض، أحدهما يقترب مني والثاني بقي في مكانه، توقفت عن البكاء، نهضت وذهبت إلى ذلك الرجل وأمسكت بيده وما زلت مبتسمة، أما حالتي فلم تكن توحي بذلك.

هذا الحلم الذي قصّته آية على أخوها، تعجبت لأبيض ألبسه ورجلا كذلك لم أستطع تمييزه لأنهم كانوا بعدين، وتبين لي أن المرأتان بقيتا في مكانهما ورجل يقترب أكثر فأكثر مني ومع ذلك لم أستطع تمييزه، تعجبت لأمره كثيرا، أما سعد فاستمتع بالإنصات إلى أخته كثيرا وعادت إليه الابتسامة وقال «إن هذا الفتى يحبك دون شك»

في ذلك الوقت تناقش الأخوان على تلك العبارة التي تركها أبوهما في نهاية الرسالة، آية قالت إنه كتبها منذ سنين عديدة وقد أعطينا العبارة اهتماما فوق اللزوم، أما سعد فقد كان ضد فكرة أخته وقال ربما كتبها من أجل شيء ما

- ربما يكون أبونا. لا لا مستحيل فلقد قالت أمنا أن أبونا قد مات، ولكنها لم تخبرنا كيف مات أو حتى أين؟ فقط قالت «مات» ونحن لم نسأل حتى، فجأة قالت آية:

- أكمل عبارتك، لماذا توقفت؟ هيا أخبرني ماذا استنتجت؟

- إنها لفكرة خاطئة.

- هيا أكمل، وقالا في الوقت نفسه

- ربما يكون أبونا حيا، ولكن كيف ومتى؟، لا أدري

- هيا اذهب لترتاح فطوال اليوم وأنت تعمل، ومازالت هنا

- حسنا أنا ذاهب.

- آه سعد، لقد ذهبت إلى المقبرة واشتريت لحارسها شطيرة كما قالت أمي وخالفتها لأنني أخذت الأزهار، ابتسم سعد وقال:

- أنت دائما عنيدة، وذهب إلى مخدعه وبدأ بالشخير كالعادة، أما آية فقد أعطت المسألة أهمية أكثر من اللزوم، بقيت طوال الليل تسبح في أفكار غريبة

- ربما يكون والدي حيا وسأعرف كل الحقيقة، وربما لا

لقد تشوشت بالكامل في هاته الأثناء إتصل زوجها محمد لكن آية لم تجب لأنهما على الغالب متشاجران، ولكن ليس كأي شجار عادي بين زوج وزوجة، إنه أكبر، أعاد وأعاد حتى ردت وبصوت غاضب وخافت:

- ماذا تريد مني يا زوجي الوقح، ألا يكفيك كل ما فعلته بي وفوقها تتصل؟ ماذا هناك؟ لقد أغضبتني لأنني نائمة الآن قل ما عندك أسرع،

أجاب بصوت خجل:

- أردت أن أطمئن عليك فقط

- حقا؟ أتريد الاطمئنان علي؟ وأذكرك بالتوقيت لأن بعد غد سيكون ...

- أغلقت الخط في وجهه، وخلدت للنوم لكنها كانت مستاءة.

أية فتاة قوية، ليست ككل الفتيات تبكي على أتفه الأسباب إنما هي حساسة عند اللزوم فقط، لو أي فتاة سمعت من زوجها هذا الكلام لبدأت بالنحيب. قالت في نفسها شكرا يا محمد أعطيتني شهية للنوم

بداية يوم جديد، وكأنه ليس ككل يوم روتيني فات، لقد كان اقتراح سعد أن يكون اليوم يوم عطلة وسنذهب إلى الغابة وإلى الشاطئ في الوقت نفسه، إلى تيبازة، شاطئ {شينوة} فهو يجمع بين زرقة البحر وخضرة الجبال، لقد أخذتهم بسيارة أبي، لقد كان الجو رائعا كان يوما جميلا يلوح في الأفق، لقد غابت عنا التعاسة، وأخذت السعادة المؤقتة مكانها، وكأن السعادة تريد أن تنتقم وترجع إلى منصبها كملكة لكي تستولي على عقولنا وتذكرنا في كل شيء وتسلب منا كل شيء، كالابتسامة مثلا.

فصل الربيع فصل مختلف عن باقي الفصول، جميل ومغرور يتباهى بنفسه، يسقط أوراق شجرة الكرز ليلفت انتباه العامة، أهنئه على ذلك لأنه مفعم بالحياة.

بقيت أتطلع للأخوين وهما يبتسمان، ناسيان وراءهما كل شيء، تمنيت في هذه اللحظة أن يكون لي أخ أفشي له كل أسرار، نتشاجر، نتسامح، نعمل كل الأشياء التي يعملهما الأخوان أو أكثر، لكن مع الأسف لقد كان لي أخ أكبر مني لكنه مات قبل أن يحيا وقدر أمي أنها رزقت بفتى واحد، لطالما شعرت بالوحدة، لكنني لا أتظاهر بذلك أمام سعد، يجب أن أكون قويا معه لكي يكون هو كذلك لكن في الحقيقة أنا هش من الداخل

- سيحل الظلام أريد أن أرى غروب الشمس من أعلى القمة لرؤية زرقة البحر وخضرة الجبال، أتود أن تذهب معي...

بينما آية تقطف بعضا من زهور السوسن الصخري، خيّمت لحظة صمت، كنّا مترهلين وصامتين وكئيبين، بقينا نتأمل في ذلك المشهد لقد بدا ذلك اللون مخيف إلى أن فيه بريقا من الأمل، وبعد برهة غير يسيرة مللنا، اقترح سعد فكرة أعجبتني أن نحكي قصصا من الواقع، أي حصلت معنا أو مع غيرنا، لقد بدأت أنا الأول.

عندما كنت في مصر ذهبت إلى سور الأزبكية، سور الأزبكية تباع فيه جميع أنواع الكتب يضم فيه مائة واثنان وثلاثون مكتبة أمام مسرح العرائس في العتبة في القاهرة، لو ترون ذلك المشهد الجميل، تلك الكتب القديمة المرتبة وتباع أيضا بثمن زهيد لكن مستخدمة من قبل، لم أمل أبدا، لقد ذهبت إلى هناك قاصدا الاستفادة من الكتب القديمة التي يعتبرها الناس لا تساوي شيئا، أما أنا بالعكس أحببت ذلك المشهد الجميل تجد كل ما تحتاجه من الكتب القديمة ذات الورق الأصفر والغلاف السميك، لقد كانت الزيارة الأولى لي، كنت أسمع عنه قديما لكن لم أكن أعرف أنه رائع لهاته الدرجة لكنت قد أتيت له منذ زمن بعيد، لقد وجدت رجلا عجوزا يجلس داخل المكتبة، لم تكن المكتبة مشهورة لأن لا أحد يدخل إليها، بقيت أبحث عن الكتب التي على الرفوف، لكنني توقفت هذه المرة، تزعزع خاطري مع هذا الكتاب، أخذت أتجول في صفحاته وكأنني كاتبه، أغلقته بقوة، اتجهت للشيخ وسألته عن الثمن فأجاب: «هات جنيه أو اثنين، إنك الوحيد الذي انتبه لأمر الكتاب أصلا هو بلا غلاف «أعطيته ثلاثة أضعاف الثمن وقلت :

احتفظ بالباقي، لم تك لحظات حتى خرجت واتجهت للمنزل وقد اختلطت أفكاري بماضي وذكرياتي.

لقد دخلت المنزل وضعت الكتاب أتيت بكأس ماء لأروي عطشي، شرعت في القراءة ، جعلت مني الذكريات متشوقا أكثر فأكثر، سهرت الليلة بأكملها لقراءته، كلمة فكلمة حتى أتممته كانت الليلة حلوة غير أنها ممزوجة بالذكريات التي لم أرد أن أتذكرها ، لكنني فعلت، كنت منذهلا بقوة ذاكرتي التي عرضت علي قصة هذا الكتاب وكأنه...،أجل رجعت بعشر سنين للوراء، حينما كانت أمي تعودني على قصة كل أسبوع، غير أن هذه الأخيرة كانت الأخيرة، إذ روت لي أمي بضع صفحات فقط بعد حجز هذا الكتاب الذي يروي فيه الكاتب عيوب القادة وكذا الطبقة الرئاسية التي طرد منها ولكنها على شكل قصة للأطفال تروى على ألسنة الحيوانات.

- حسنا حسنا أنا سأروي لكما قصة حدثت معي في لندن.

كان فصل الشتاء والأمطار تسيل من السماء، كنت أحمل مظلتي المزخرفة ككل يوم، وأنا ذاهبة للعمل، كانت السادسة صباحا وكان العالم مزدحما بينما أنا كذلك إذ بي ألتقي بصبي، لقد بدا لي من الأطفال المشردين، لكن ليس كذلك لقد عاش ليلة صعبة فقط، كان يبكي لكن لم يعره أحد انتباهه اعتبروه كأي طفل مشرد أما أنا فقتلني الفضول وأردت أن أعلم لماذا، لعلي أساعده في شيء، المهم سألته قائلة:

- صباح الخير يا عزيزي، ماسمك، لكنه لم يرد عليّ، وأعدت سؤالي عدة مرات، قال بخوف وهو يبكي:

- صباح الخير، اسمي أنور أنا لست بطفل شوارع كما تظنين ولست مشردا.

- ومن قال إني ظننت ذلك، أنت فتى جميل ولا يبدو عليك ذلك، لقد كان فتى حاد الذكاء

- أنا لا أريد المساعدة من أي شخص، فقط أريد البقاء لوحدي، هيا اذهبي ربما قد تأخرتي عن عملك، أما أنا فلم أوافق طبعا، وكنت مصرة على مساعدته، أخذته إلى المنزل بالقوة، بعدما لمحت جرحا عميقا بالقرب من أذنه، لقد انتهيت من تضميد جرحه، فهذه أول مرة لم أستطع فعل أي شيء كطبيبة لمريض، أحس وكأنني....

أعطيته كتاب «جزيرة الكنز» للكاتب R.L.Stevensonإذ به قال:

- لكن. ما أنا بقارئ

فتى في هذا العمر وفي هذا العصر، ولا يعرف القراءة والكتابة، لقد أتتني فكرة لكي أشرع في تعليمه، وبدأت أولا في تهجئة اسمه:

أ.ن.و.ر...

قال سعد:

- أفف لقد أعدت لي هذه القصة آلاف المرات، أني لا أجد ما تحكيه جدير بالاهتمام.

- لكن نادر لم يسمعها مني، أنت أناني تفكر فقط في نفسك، حسنا الآن دورك.

هيا بنا لقد تأخر الوقت سأحكي لكم في الطريق فقد حلّ المساء بغتة.

قبل أسبوع، آآآه في اليوم الأول من مجيئك من مصر، لقد كان لي سبب وجيه عندما تأخرت عليك في المطار، عند افتتاح المقهى، أتى أول زبون لي، قهوة سادة مجانا مع فطيرة التفاح لقد كان جد كئيب، أفرغ كل همه في وكأنني بلا هموم لقد عاش قصة قمة في المأساوية، كان يحب فتاة تسمى «لين»، كانت قصة حبهما قصة لا تنسى في قاموس الحب، رغم أنهما التقيا بالصدفة، فهما كانا فقيرين، لا يوجد مكانا يذهب إليه سوى الشاطئ كمنظر خلاب ومجاني، التقيا هناك مع الأيام بدآ يلتقيان كثيرا وقررا الزواج بعد التعرف على بعضهما أكثر.

لكن المال سيد القيم، في آخر لحظة وبعد إنهاء كل المراسم، كانت قصة خيانة بدون أي سبب مقنع لقد تخلت عنه وزال الحب المزيف ومن كان المتضرر سوى هو، وقالت بكل وقاحة:

- أنا ما زلت شابة جميلة شقراء من المستحيل أن يذهب شبابي سدى مع رجل فقير مثلك، أريد فقط أن أعيش في عالم الخيال كرهت من الواقع الذي أنا فيه، سأكون سعيدة معه بأدنى شك، لأن المال هو السعادة بالنسبة لي أما زلت تؤمن بأن الحب هو السعادة؟، أتمنى فقط أن تجد من يفهمك ويعيش معك حياته، والزمن مازال طويلا، وبالمناسبة أنا لم أكذب عليك في شيء أنا أحببتك لكن لم أدرِ أن كل ذلك الحب سيتحول لكراهية بعد أن تأتي السعادة زاحفة، أنا لا أستطيع أن أضيع الفرصة، لا أريد أن أعيش مثل أمي الحمقاء. هي أيضا أحبت رجلا فقيرا ومات وأصبحت أيم تملك خمس بنات يعشن في كوخ، كيف تريد أن أعيش مثلها؟ ليس لدي الكثير لأقوله لك أنا آسفة لم أك أدري أن الأيام كانت تخبئ لي مفاجأة تخرجني من الجحيم، أنا لا أؤمن بالحب بل أؤمن بالمال، لقد كانت إجابته الوحيدة هي:

- أنا أؤمن بالكراهية على الأقل لا توجد بها خيانة.

- أخبرني يا نادر ماهي ردة فعلك حينما يطعنك شخص بهذه الطريقة؟

آآآه... وقطعت آية المحادثة وقالت بغضب:

- كل الناس تخطئ، وللفتاة سبب مقنع على ما أعتقد على أن تخونه، لأن الله يحمي الحب الحقيقي ربما لم تشعر معه بالراحة، ليس قدرها وأنت تفهم هذا أكثر مني على ما أعتقد.

لم ينطق سعد بكلمة أخرى، وقلت أنا:

- أتريد أن تعرف ردة فعلي، لا تقلق أنا أعرف كيف أختار الفتيات أنا رومانسي.
- ولكن إذا أخطأت ووقعت في الفخ.
- سأطلب منه أن يحبها أكثر مني وألا يقصر في حقها أما هي سأقول لها:
- اعتني بنفسك ولا تخوني زوجك كما خنتني أنا، أعجبك يا سعد.
- نوعا ما، لكن تساهلت معها قليلا، أتعلم أني لا أحب الأذى لأي كان
- أنت إنسان طيب يا نادر، لطالما أحببتك لطيبتك الزائدة.
- حسنا. لقد وصلنا سأخلد إلى النوم، وشكرا على الرحلة.
- لقد كانت رحلة ممتازة حقا.

منذ زمن طويل لم أر سعادة سعد فهو اسم ليس على مسمى فهو تعيس طوال الوقت ذهبت إلى مخدعي، بينما أنا في سابع أحلامي، بينما سعد وآية مازالا لديهم ذرة أمل في لقاء والدهم من جديد ويعيدون قراءة الرسالة وتأملها من جديد، وقد تذكرت آية تلك المسألة وتشاجرا مجددا كأنهما أطفال صغار، عندما كانوا أطفالا يتشاجرون دائما، لطالما أخبرتنا الخالة فلة -رحمها الله-عن طرائفهما لقد كانا مشاغبان وحقودان لا يتسامحان بسهولة ويتشاجران لأتفه الأسباب ومرة خططا لصنع قالب من الحلوى...

بداية يوم جديد، لكنه يوم مختلف ليس كيوم أمس، لقد كانت الساعة الثامنة صباحا، سعد في المقهى كالعادة وآية في المطبخ وأنا نائم لم يكن اختلاف اليوم في هذا وإنما شيء لم نكن نتوقعه بعد كل هذه المدة، لقد اتصلت بي آية، كانت خائفة جدا وكانت تبكي. لقد استيقظت للتو بعد سماع هذا الصوت، إنها مسألة لا تدعو للخير تتعلق بسعد دون شك.

- نعم آية لم تبكين؟ ماذا هناك؟ أيتعلق الأمر بسعد؟ لم تنطق بحرف واحد بل واصلت بالنحيب والبكاء هته ربما اول مرة أغضب في وجه آية، اضطرتني لفعل ذلك وقالت:

- نعم تعال إلى مخفر الشرطة الواقع بجانب المقهى.

- لماذا آت للمخفر؟ وكان جسمي يرتعش خوفا من وقوع أي كارثة

- سعد اعتقلته الشرطة، لماذا؟ لا أعرف، سأعيد لك كل شيء فيما بعد والآن همنا الوحيد أن نخرج سعد من هذا المكان، لقد اتهم بسرقة أموال أحدهم وقتل نفس والعقوبة يمكن أن تكون سجنا مؤبدا، والآن يلزمنا محامي، يجب أن يكون ذكيا لينقص على الأقل من فترة الحكم، إنها كارثة يا نادر، لماذا أقحمت نفسك في هذا يا سعد؟ لماذا؟ والآن ستحصد ما تزرع.

- أنا أعرف صديق والدي، أشهر محامي في الجزائر وتقريبا حل جميع قضاياه، فهو حاد الذكاء، سأتصل بأبي وأقول له تكلم معه لعله يحل قضية سعد في أقرب وقت، حسنا ما الذي تنتظره؟

أتى زين مسرعا، وقال لآية:

- لا تقولي لي أنهم قد اعتقلوه من أجل تلك القضية.

- للأسف، نعم يا عم زين

- أتعلمين يا بنيتي أن عقوبة ذلك دون شك، سيكون السجن المؤبد، لكن قد اشتكت أمك من قبل لكن قالوا إنهم لا يملكون دليل، ماذا الآن فماهو الدليل الذي بيدهم؟ ومن اشتكى به؟ لكن إذا كان سعد هو من فعلها، سيعاقب، والعقوبة ستكون وخيمة، فقالت آية بغضب شديد:

- لم يكن أخي، لالم يفعل، إنه بريء لا أحد يفهمه لماذا؟

- أعلم أن سعدا بريء، لكن جميع الأدلة موجهة ضده، بماذا تفسرين ذلك.

- نادر يعرف محامي شاطر سيتكلم معه، لعله يساندنا يجب ألا نقطع الأمل، أفف المشاكل تأتي واحدة تلو الأخرى.

وأخيرا سمح لآية برؤية أخوها بصفتها أخته، لقد ضحكت بابتسامة ساحرة مع أنها تبكي وقالت في نفسها:

سأتظاهر بأنني قوية لكي ينسى.

- أخي الصغير لا أعلم كيف أقحمت روحك الطيبة في كل هذه المشاكل؟ لكن لا تقطع الأمل، أتتذكر تلك القصة التي كانت تحكيها لنا أمي، نسيت اسمها ذكرني أرجوك.

- الفتى الملاك كانت تحكي لنا الكثير من القصص، لكنها المميزة والمثالية بالنسبة لمفهوم الحكاية.

- أنت تؤمن بالقدر؟ أليس كذلك يا أخي.

- بالتأكيد أؤمن به.

- إذا عليك ألّا تقطع الأمل، هذا مجرد امتحان ويجب أن تفوز به لكي تنال رضاه

أمسكا بيديهما، قال سعد وهو نادم عن كل أفعاله...

- يا ريتني أخذت بنصيحة أمي عندما قالت لي ذات يوم:

نحن البشر، كلنا نقع في الخطأ، لكن لا نقوم بأشياء لا تغفر، يجب أن نتمعن في السير على طريقنا، كن حذرا يا بني واعلم أننا كلما أخطأنا سيأتي ملاك لينقضنا من الأشياء التي نحن لا طاقة لنا بها، يجب أن تغرس قويا في قلبك ورفقا بنفسك.

- اعمل بما قالته لك يا سعد واعلم أنك محظوظ، لقد أخبرها الحارس أنه قد انتهت مدة الزيارة، وقالت في عجالة لأخيها أنها أحضرت لك معطفا وبعض الفاكهة، أعلم أن البرد قارس في هذا المكان، وأن الأكل أبشع منه، تحمل واذكر الله يذكرك وادعوه يطلق سبيلك، وداعا يا أخي سآتي قريبا. قريبا جدا.

اتصلت بآية وأخبرتها أنني سآتي للمنزل، لكن قالت:

- أنا في الخارج، دعني أنا آتي إليك.

- ما من جديد.

- لا، لا أستطيع أن أشرح لك أكثر في الهاتف، أنا في الطريق الآن، نصف ساعة وأصل.

- أرجـو مـن اللـه أن يكـون خـبرا مفرحـا يومـا كامـلا لم أسـمع خـبرا جيـدا إنـه يـوم تعيـس دون شـك.

- سيخرج من هناك، سيخرج.

لقد وصلت آية، أنا محبط للغاية كيف سأخبرها الآن ...كيف؟

- Hello نادر هيا أخبرني ما هو هذا الأمر الطارئ الذي أردتني أن أعرفه ؟

- في الحقيقة يا آية أن الخبر لا يبشر بالخير

- حقا؟ ولكن لماذا كل الأبواب مغلقة في وجوهنا؟ وقد بدأت تبكي كالعادة.

- آيـة أليـس أنـت مـن قـال إننـا لا نقطـع الأمـل، انظـري لقـد اتصلـت بـأبي عـن أمـر المحامـي وقـال إنـه خـارج البـلاد، يالـه مـن حـظ، وسـيأتي بعـد خمـس عـشرة يومـا وسـيقوم بمسـاعدتنا دون شـك فـور عودتـه، أنـا أرجـوك اصمـدي، أنـت قويـة اصـبري.

- حسنا سأذهب للمنزل الآن، وداعا.

- انتظري سأوصلك بالسيارة، في الحقيقة أنا أرتجف لا أستطيع الحركة هلا أوصلتني.

- بالـتأكيد سأفعل.

- شـكرا هـذا لطـف منـك أحتـاج إلى الراحـة فعقـلي مـع سـعد، إنـه بـريء أنـت تعلـم ذلـك أليـس كذلـك يـا نـادر.

- نعم، بالـتأكيد أنا أثق به لا يفعلها.

بعد خمسة عشر يوم

أريد تحرير ما بداخلي، أريدالصراخ، أريد البكاء بشدة حتى ترتاح روحي، ياإلهي ما هذا الضيق الذي أنا فيه، ما هذا الإحباط والأسى الذي يراودني فكل مرة تسقط فيها أضواء القمر في شرفتي، تعبت من آهات نفسي، تعبت من تفكيري الدائم بعدة أشياء، أنا سيئة لهذه الدرجة أصبحت ألوم نفسي رغم براءتها كل هذه المشاكل أوهمتني وتركتني أرسم صورتها في مخيلتي، لأنعم بالنظر إليها وأنا متيقنة أنها مجرد كذبة لأشبع بها روحي التي وصلت لآخر نقطة من الصبر، ما الذي يجعلني أتحمل كل هذا العذاب؟ مستحيل أن يكتمل يومي بدون أن تمر علي تلك الحالة النفسية التي تجعلني أكره كل شيء، وكل شيء أصبح يخلق لي المشاكل، والمشاكل أغرقتني وأنا في العمق الآن.

- أيها الصباح، صباح الخير

- وصباحك أجمل ماذا تريد؟ لأنني سأذهب

- أيها الصباح أنا أتوسل إليك ابقى معي لا تذهب.

- لماذا تريد البقاء معي؟

- لأن الليل يا صباح، الليل يجعلني أتمايل شمالا ويمينا في الفراش، في فراش السجن اللعين المتسخ ويجعلني أفكر فقط في الأشياء السلبية، لا أستطيع النوم أتوسل إليك ابقى...

وكأنه قال لي:

- أنت تستغلني كما استغليت كل الناس من حولك، فذهبوا ولم يعودوا وأنا أيضا لن أعود.

أنا بشري مليء بالأخطاء لكني لم أستغل أحدهم يوما من أجل إتمام مصلحة تخصني سواء مادية أو حتى معنوية.

كنت أتوهم وأتوهم، وأجد الراحة والطمأنينة في أوهامي حتى إذا طلع الفجر واستيقظت وجدتني جالسا وفي يدي قصبة مرضوضة وعلى رأسي إكليل من الشرك، لا بأس فأنا المخطئ أنا المخطئ.

لقد مرت خمسة عشر يوما، نحن في انتظار المحامي بفارغ الصبر كطفل ينتظر هديته في عيد ميلاده ولكن يخشى أنه لن يأتي أحدا لزيارته وإن زاروه لن يأتوه بهدية هكذا أصبح حالنا، أنا صديقه الوفي طبعا وأخته التي تستطيع أن تكرس حياتها من أجل حماية أخيها الصغير فهو أمانة في رقبتها.

اتصلت بأبي ليأتي ويتحدث معه شخصيا، لندن بلاد بعيدة سيكون جد متعبا لذا سنعزمه للغداء في بيتي ونتكلم في الموضوع، سيساعدنا دون شك، إنه توأم أبي منذ الطفولة.

- مرحبا بعودتك، سالما غانما إلينا السيد نبيل أوهيركيول بوارو.

- أولا صديقي العزيز، لطالما اعتبرتني شخصا غريبا عنك.

- لماذا؟

- لأنك تناديني بسيد.

- لا لا كنت أمزح، فأنت صديقي.

- حسنا لم أكن أتوقع استقبالك لي في المطار، أنت تعرف بأن علاقتي مع سلوى تتدهور يوما بعد يوم مع أنها هنا إلا أنها لم تأت حتى أولادي الوقحين لا يهتمون فهمهم الوحيد هو المال، لكن سألقنهم درسا كبيرا، إذا أيها الروائي ماهي آخر مؤلفاتك؟ منذ زمن لم نلتقِ، قد قرأت روايتك الأخيرة، الزهرة الميتة، لقد أعجبتني للغاية، إلّا النهاية فلم أحبها، لمَ قتلت البطل مع أنه هو الأساس؟

- آه يا صديقي نحن دائما مختلفان في كل الأمور، أو أنك نسيت هذا؟ أما بالنسبة للمؤلفات القادمة فأنا أريد أن أكتب رواية باسم... سأجعل الموضوع سرا.

- انتظر انتظر ماذا تقصد ب «أريد أن أؤلف»

- ماذا عن الآن؟

- أنا أتهاون في عملي

- ما زلت كسولا كالعادة

- كنت تنتظر مني التغير

- حسنا ما هو الموضوع السري للرواية؟

- آه إنه... ماذا تريد أن تخدعني، كآخر مرة أخذت مني سيارتي وقمت بحادث، أتخالني أنني فكرت فيك، لا بالطبع فكرت بسيارتي.

- أيها البخيل... نسيم أنا جائع ولا أريد أن آكل طعام المطاعم، ألا تريد أن تعزمني للبيت.

- آه بالتأكيد لقد نسيت ذلك أنا أتيت من أجل هذا وأريد أن نتكلم على موضوع مهم، ولكن أفضل أن نذهب لمنزل نادر.

- حسنا، أتمنى أن يكون الطعام لذيذا.

- خلتك تغيرت.

- أتنتظر مني التغير!.

- هذا الأمر الوحيد الذي جعلك سمينا مثل...

- آه لا تقلها، أنا أحذرك

- بشرط، عدني أنك ستتبع حمية

- حسنا، أنا أعدك... لكن بعد هذا الغداء.

إن رأيت عمي نبيل لأول مرة ستحسبينه سيد بارد، خالي من جو الفكاهة، والخصوص العصبية، لكن بالعكس إنه يكرس حياته تكريسا للعمل ويطلق على نفسه هير كيلبوار والطعام هو أهم شيء حتى يعمل دائما يجب أن يحضر معه شيئا يأكل وإلا... لم يرني العم نبيل منذ زمن لقد تغيرت كثيرا.

عند نظرته الأولى لي، قال لأبي:

- ما بالك أيها البخيل فأنت لا تطعم ابنك، فهو جد هزيل.

لقد تعجبت كثيرا، كيف؟ أنا هزيل، ربما هو مفرط كثيرا في السمنة، لقد سلمت عليه وبدوت كالمغفل أمامه، المهم لقد توجهنا إلى غرفة الجلوس تبادلنا الحديث ونحن نشرب الشاي كلمته عن موضوع سعد وكيف أنه اتهموه بقتل نفس وأنه سرق أموال سيده في المقهى وقال:

- أمم ستكون العقوبة دون شك الإعدام، لكن لا يطبق هذا القانون في الجزائر لذا سيكون السجن المؤبد، لكن لم تخبرني ما هو الدليل ضده؟.

- آه، الدليل أنا آسف في الأول لقد قدمت أمه شكاية ضده ولم يكن هذا كافيا لسجنه لذا أطلقوا صراحه وبقي مراقبا، والآن أتى صديق السيد جميل فهو صديق وفي كما قال زين، الخالة فلة أم سعد لقد كانت مريضة بمرض القلب فكاد سعد أن يكون طبيبا إلاّ أنه لم يكتب له ذلك فعمل عند إحدى المقاهي ووثق في سيده كل الثقة، وسعد بادله الوفاء نفسه والإخلاص حتى جاء بعض المافيا الذين يعملون لدى السيد جميل لقد كان إنسانا مغفلا نظرا إلى كبر سنه، دائما ما يسرقون أشياء ثمينة من منزله، فوضع خزنته في المقهى وأعطى المفتاح لسعد وسرقه جماعة المافيا لقد غره الشيطان وتذكر أمه التي تحتاج إلى المال من أجل إجراء العملية، لكن أمه لم توافق على ذلك في تلك الأثناء اكتشف السيد جميل بأنه سرق وتأكد بأن سعدا له يد في هذا العمل الدنيء، لقد قتلوه أصحاب المافيا بكل برودة ولكن هو كتب رسالة ترك فيها جميع أمواله لسعد...

- نادر أنا أرجوك اختصر فأنا جد متعب واستبدت بي الرغبة في التدخين.

- حسنا، طلبت الخالة فلة من زين أن يتأكد في موضوع المال، إلا أنه لم يجد السيد جميل ووجد صديقه وأعطاه الرسالة من أجل أن يحقق في مقتل صديقه، عندها اتجه زين لسعد واتهمه بالجريمة بعد أن قرأ الرسالة وقد وضع صديقه جهاز تنصت في جيبه، توجه سعد إلى أحد المافيا ليطلب منه تفسيرا بينما كان يصور كل تلك الأحداث صديق السيد جميل، هكذا يكون دليلان قويان موجهان إلى سعد، مع أنني أعلم أنه بريء أتستطيع مساعدتنا يا عمي نبيل أنا أرجوك إن هذا كل ما أملك.

- نادر يا بني العزيز يا ليتني حظيت بصداقة مثل صداقتك مع سعد، بينما وجه أبي يصفر، المهم الآن يجب أن نتحرى الأمر.

- ماذا حل ببيت السيد جميل؟

- لقد أغلقوا دار السيد جميل من طرف الشرطة بالشمع الأحمر، وتحروا من قبل لكن لم يجدوا أي بصمات سوى لصديقه وهو نفسه وهذا الشيء الوحيد الذي نملكه كحجة أن سعدا لم يقتل واستدعوني أنا وأخته للتحقيق.

- لكن لم تخبرني يا نادر لماذا تساعده لهاته الدرجة؟.

- في الحقيقة يا عم إنه توأم روحي، أنت تعرف سعد لأنه لم يكن يخرج من المنزل البتة.

- أتعلم يا نادر أنّ أصعب شيء في الحياة البائسة هي اختيار زوجة وصديق لكي تكمل معهم حياتك دون خيانة، لكن الأمر الذي لا يستطيع أن يستوعبه عقلي هو كيف أنكم استطعتم كلكم الوثوق فيه وبعد كل هذه الأدلة فهو سارق حتى لو لم يكن قاتل؟.

- لا أيها المغفل فسعد أعتبره مثل ابني تماما، المسألة ليس كما تتوقع فهو عمل كل شيء من أجل أمه فقط لا يحالفه الحظ، السارق الذي تتكلم عنه كاد أن يكون طبيبا ليست لديك أي فكرة عن حياته لذا لا تحشر أنفك فيما لا يعنيك ولا تحكم على الناس بهذه الطريقة بل من القلب، من القلب

- لقد بدأ الأحمق إعطاء دروس في الأخلاق.

- أين هي الرسالة يا نادر؟

- إنها عند زين على ما أعتقد.

- يجب أن تحضرها في الحال فإنها دليل قاطع سيدخل سعد السجن دون شك.

- نعم سأتصل به الآن، اتصلت بزين لكنه لم يرد علي.

- حسنا الآن سآخذ قسطا من الراحة وأحلم أحلاما كبيرة بحجم إلهام أبيك.

لقد فضّل العم نبيل أن يمكث أياما في الفندق بعد إلحاح كبير مني بأن يبقى في المنزل لكنه أبى، لقد قبل بالتأكيد أن يعمل على قضية سعد فشكرته كلّ الشكرعلى هذا الجميل الذي فعله معنا.

أما أنا فذهبت إلى زين لكي يتكلم معه عن أمر الرسالة، لكنني لم أجده في البيت، قالت زوجته:

- لقد ذهب إلى الشرطة ولا أعلم لماذا، لكن عن شيء يخص سعد على ما أظن لقد تعجبت لم يريد زين شيئا من هذا القبيل ؟! الرسالة هي أكبر دليل على أن سعد قتل السيد جميل لكن...

لقد ذهبت بأقصى سرعة إلى مقر الشرطة، وإذا بي وجدت زينا ينتظر، وقد تكلمت معه بسرعة وغضب حاد:

- زين.

- ماذا، آه نادر بني...؟

- أتريد أن يدخل سعد للسجن أم ماذا؟ أجل... لقد كان هذا هدفك من الأول، لماذا لا تريد أن تصدق بأنه ليس هو.

لماذا؟ وأنا كالمغفل تكلمت دون أن أعرف شيء، وأجاب صارخا

- ماذا هناك يا نادر؟ لماذا تتكلم بهذه الطريقة معي؟ ما هذا الهراء؟ أنا أتيت لأسلم الشرطة الرسالة التي معي لعلها تكون دليلا يساعد ابني سعد على...

- آه، أنا آسف. آسف للغاية لقد تكلمت بوقاحة معك، حسنا ألا ترى أن تلك الرسالة بالعكس هي دليل لإبقاء سعد في السجن طوال الحياة، لقد كتب فيها الميت بنفسه أنه قتل من طرفه، فماذا تريد أكثر من هذا.

- آه يا بني أن أميّ ولا أفقه شيء في مثل هذه الأشياء، أنا آسف أرجوك

- لا داعي لذلك، أنا من عليه التأسف

- لقد أتيت في الوقت المناسب، لولاك لكنت قد ارتكبت أكبر خطأ، لكن لم أك أدري أن ذلك السافل سيتبعني ويضع في ملابسي جهاز تنصت، ولا أدري حتى كيف أنزعه.

- لا تقلق سيخرج بإذن الله.

اليوم لقد قمنا بزيارة سعد في السجن، ليس بالشيء الجديد ككل يوم نقوم بزيارته فقط أعلمناه بأننا وكلنا محامي من أجله، إنه قوي وأنا أثق به وسأسانده قدرالمستطاع فإن لم تجد صديقك وقت الضيق متى ستجده.

لقد تحدثنا مع صديق السيد جميل وأردنا إقناعه بأنّ سعد لم يقبل على قتل صديقك ولكنه لايفهم، لم أستطع تحريك مشاعره وقلت صارخا:

- إنه بريء سعد لا يستطيع حتى قتل نملة كيف له أن يقتل...

- لكنه يستطيع سرقة الكثير من مال سيده الذي وضع فيه الثقة.

- خير الخطّائين التوابون، أليس كذلك.

حينها انفطر فؤاده، تغير تغيرا جذريا عندما تكلمت عن الأخطاء لقد تذكر خطأه الذي كان في الأصل مع السيد جميل.

إن جميل لم يتكلم مع صديقه منذ مدة، هذا لأن السيد جميل كان يحب فتاة في شبابه لقد كان يعلم صديقه بأنه يحبها وسيتزوجها في المستقبل القريب ولا يستطيع العيش بدونها، ومع ذلك انتهت علاقتهما ودفنت قصة حبهما الجميلة وهذا بسبب خيانة صديقه مع محبوبته، ياليته أحبها واعتنى بها وتزوجها، لكن ربما لم يكتب الله زواجهما ولكن لا ، لقد كان يعتبرها دمية للهو والاستمتاع وثم ملّ منها عندما انتهى منها ورماها كأي لعبة أخرى، لقد جرحه عن قصد، وسامته وجاذبيته كانا سببا في غروره، كان قلبه يحترق لقد وضع الثقة في كلاهما وفي الأخير ماذا؟ غدر وخيانة.

إن قلب السيد جميل مفتوح لكل من طلب منه السماح لكن النار لن تنطفئ لن يصبحا صديقين حميمين كما كانا مستحيل لقد استغله.

عند مشاهدتنا للفيديو، لقد أوقفتنا آية بطريقة غريبة قائلة:

- انتظر، انتظرإن هذا الرجل ليس بغريب علي وكأنني أعرفه.

- لكن لا أستطيع رؤية وجهه كيف لك أن تعرفيه.

- إحساسي يقول، هذه القبعة التي يرتديها ليست غريبة أيضا.

لقد سألنا صديق السيد جميل:

- من هذا ولماذا هو يقوم بمساعدة سعد؟

- الله أعلم، ولكنني رأيته أكثر من مرة بالجوار.

لقد أخذت آية تفكربالموضوع وبقيت تتساءل، لقد قال صديق السيد جميل أنه سيعمل جاهدا ليخرج سعد من السجن إذا كان بريئا كما تقولون.

في الطريق ونحن ذاهبان للمنزل، أوقفت السيارة عندما قالت آية وهي صارخة:

- لقد تذكرت، نعم تذكرت!

- ماذا تذكرت يا آية !؟ ولم بهذه الطريقة؟.

- أنا آسفة لكن لقد تذكرت لمن تلك القبعة، إنها لأبي.

- أبوك! كيف ذلك؟ أوليس أبوك مات منذ زمن، يبدو لي أنك مرهقة بعد هذا اليوم العصيب، سنصل إلى البيت قريبا وسترتاحين...

- لا.لا يا نادر أنا بخير أنا متأكدة مما أقول، لكن أتذكر مثل هذا اليوم عندما نسجت أمي له تلك القبعة، لقد كان الطقس مثلجا، لقد خافت أمي عليه من أن يمرض كالعادة فهو يمرض بسهولة. أبي لم يمت، لقد اخترعت أمي تلك الكذبة علينا لكي نصمت عن التساؤل، لكن لا أعلم لماذا فعلت ذلك.

- بالله عليك، عدت لا أصدق شيء.

- في الأول علمت بأن أبي الحقيقي هو نفسه من رباني ولم أكن متبنية طوال هذ الوقت والآن أكتشف أن أبي لم يمت بعد.

لقد شرعت في البكاء كالعادة فهي تبكي بسهولة، ما هذا الغموض في هذه العائلة، في الحقيقة أنا أيضا لقد اكتفيت من كل المشاكل، غدا ستكون رحلة صعبة وهي البحث عن المفقود.

اللعنة العظيمة على الحياة، وعلى ما تسببه لنا من وجع، في الحقيقة الإلهام سيأتي من كل هذه المشاكل للتعبير عن كل شيء، حتى عن اليأس، كان يخيفني أن يكون شعورا خاطفا، لم يكن من المفترض أن يلتصق بي هذا البؤس وهذا الألم والخذلان.

كيف لنا أن نعثر على العم نزيم، بعد أن تأكدنا من صحة أقوال آية، في كل هذه المدينة الكبيرة يجب أن نفكر في شيء أكثر ذكاء، عندما قالت آية:

- ضرب سعد إلى الرأس ولقد وجده أبي وأخذه إلى.... لقد وجدتها هيا بنا.

- إلى أين؟ وماذا وجدت؟

- في الطريق ستعرف ليس لدينا وقت لنتناقش، لدينا الوقت فقط لنقرر.

- حسنا.

- عندما ضرب حسان سعدا أخذه أبي إلى المستشفى وهناك نستطيع أن نتعرف على اسمه فهو أدخله إلى هناك بصفته ولي أمره.

- سنعطي سعد صورة والدك إن استطاع التعرف عليها.

- ولكن كيف البارحة فقط كنا عند سعد ليس مسموح لنا بالدخول.

- لكن المحامي يستطيع، سأطلب من العم نبيل أن يذهب إلى هناك.

- سنذهب الآن إلى المستشفى، وسنرى هناك الاسم مدوّن.

عندما سألنا عن الشخص الذي أحضر المريض إلى هنا، وأعطيناهم كل المعلومات لكن للأسف لقد أجابوا:

- نحن جد متأسفين، في ذلك اليوم كنا جد مشغولين ولم نحسن كتابة الأسماء في السجل.

وأجابت آية غاضبة بينما أنا أهدّأ فيها:

- فيم يفيد التأسف الآن أخبريني فيم يفيد؟ أنتم لا تعملون عملكم على أحسن وجه، المسألة أصعب مما تظنين.

لقد خاب أملنا لا يوجد حتى بريق من الأمل نتمسك به على الأقل، حتى نادت بصوت رقيق ناعم بريء، لقد رأيت ذلك من نظراتها وكأنها تريد مساندتنا بأي وسيلة وقالت:

- لا يذهب شقاؤكما سدى، أتذكر جيدا ذلك الشخص بالذات، الذي أحضر ابنه وكان يصرخ ويصرخ حسبته جنّ لقد دونت اسم المريض في السجل اسمه سعد، سعد إيهاب.

وصاحت آية:

- Its miracle!

- لقد أسقط ذلك الرجل محفظته ولا أدري ما فيها، أنا لا أريد أن أتطفل على الآخرين، دقيقة سأبحث عنها

لقد أعطتنا المحفظة، لقد كانت حقا معجزة إنه هو لقد وجدنا بطاقته وصورة الخالة فلة، لقد صرخت آية قائلة:

- إنه هو، أبي ما زال حيا نعم.

بعد لحظات زال الحماس والسعادة اللذان كانا يتملّكانها المسكينة، استطعنا التعرف على مقر إقامته وتركنا ذلك الأمر إلى الغد، لقد علمت أن آية لست في حال جيدة لم ترد التكلم معي البتة.

- ما بالك يا آية؟ أجيبيني أنا أعيد سؤالي هذا مائة مرة لقد أضعنا كل هذا الوقت من أجل ماذا؟ الحزن.

- لا أعتقد أن أحدا يجد والده بعد كل هذه السنين ستكون حالته ...

- مثلي. أنت تراني ضعيفة هكذا لكن لا، أنت لم تجرب خسارة أب ليست لديك أي فكرة ولو حتى...

- يجب أن تبقي قوية، يجب أن تقفي سعيدة لأنك وجدت أبيك، لأن ليس كل الناس يحظون بما تحظين.

- هه، لأنه ليس كل الناس محظوظين؟، ماذا تقول أنا تعيسة لأن والدي العزيز ترك ولدان لم يبلغا حتى وترك سيدة اعتبرت نفسها طيلة هذه السنوات أرملة، لولا زين لمتنا جوعا وبردا، لا أعرف لماذا ذهبوا؟ أين ذهب كل هذه السنين واعتبرناه ميتا، وترك لغزا غامضا وراءه؟ لولا الرسالة التي تركها لما عرفت أنني ابنته من لحمه ودمه، في الحقيقة لا يصلح أن يكون أبا وفوق كل هذا لقد ماتت أمي وهو أكيد لا يعرف ولا يفكر فينا حتى.

سأجيبك على قصتي مع الحظ، أيريد الناس أن يحظو بفتاة تعيسة سيكون هذا أسبوع طلاقها من رجل خانها مع فتاة أمريكية قاصر وعلاوة على ذلك، لقد توفيت أمها في الفترة نفسها، وبعد أيام دخل أخوها للسجن بتهمة أنه قد قتل شخصا لم يقدم على قتله وبعد أيام اكتشفت أن أبوها الذي رباها هو نفسه أبوها الحقيقي...والذي قد ظنته قد مات، ماذا تريد أكثر من ذلك؟ أنا لا أريد أن يحظى الناس بما أحظى ...

- لا لا لم أقصد ذلك، أنا آسف، آسف للغاية

- لا تتأسف، أنا من عليه التأسف، وكأنما هذا الغضب العظيم قد خلصني من الألم وأفرغني من الأمل، كانت حياتي أفضل لو لم يتدخل الحظ والصدفة.

بداية نهار جديد، اليوم يوم طلاق آية ومحمد مع أنه خانها لكنه لازال يحبها ولم يوافق على ذلك بسهولة، أما آية لم تحتر أبدا في الاختيار فهي تعرف الصح من الخطأ لقد قالت بكل سهولة «نعم» أما هو فكان مضطرا، وهكذا تم الطلاق بنجاح، والآن لدينا مهمة أصعب زيارة العم نزيم ستكون صعبة فهي لا تعرف كيف ستقابله وهل ستسامحه على خطئه؟

«هجرتني وذهبت فلتجدها من الله ليجعلك لا تجد من يتزوجك ولتبقى لي من جديد، يا حبيبي عشقك حول كبدي إلى جبال، ألم تفكر أبدا أن حبيبك يبكي هكذا، ألم تفكر أبدا؟

ليضل أثر سكيني على وجهك

يا حبيبي عشقك حول كبدي إلى جبال

ألم تفكر أبدا أن حبيبك يبكي هكذا، أن حبيبك يبكي هكذا»

لطالما كانت أمي تلمّ شملنا وتبقى تغني لنا هذا المقطع من الأغنية لم أك أعلم لماذا، عرفت أن زوجها الذي لطالما اعتبرته كل شيء في حياتها، اعتبرته بمثابة أب يحنّ عليها وصديق في وقت ضيقها، لقد كان مصدر الضوء في حياتها لا تستطيع الرؤية بدونه، ولكن ماذا فعل هو؟ لقد خان كل الثقة لا أعرف السبب، ربما أمي بالغت في ثقتها أو أعطته كمّا زائدا من الحنان أو ما شابه، ربما أمي مخطئة وأنا لا أعلم.

أنا بحاجة لشخص يعلمني كيف أفرق بين الصواب والخطأ، لأنني الآن أقارن بين أمي وأبي، ربما أنا بالغت في وصف أحد لم أقابله بعد، سيعد افتراء، لطالما اعتقدت أن أبي إنسان شريف وكان أكبر قدوة لي كنت أفكر فيه فقط وطيلة الوقت كنت أحلم به وتمنيت أن يكون حيا، تحققت أمنيتي ولكن ليتها لم تتحقق، لقد عرفت أبي على حقيقته

لم ترد آية أن تتحرى في الأمر لوحدها، لذا ذهبت لزيارة سعد في السجن، هنا يدخل موضوع آخر أكثر أهمية لقد أدهشني ذلك حتما كيف ومتى ولماذا؟ كل هاته الأسئلة سيجيب عنها سعد، سعد تحول شعره الأسود إلى الأبيض، شاب تحول إلى شيخ هكذا كتبت الصحف، إن هذه الحالة المرضية النفسية جد نادرة وهي تعرف بماري أنطوانيت» ملكة فرنسا وزوجة الملك لويس السادس عشر، ففي السجن تحول شعرها الأشقر الجميل إلى شعر أبيض متجعد وهذا بسبب المشاكل والضغوطات النفسية المتعلقة بالعاطفة، فسعد المسكين كل تلك الضغوطات والمشاكل كان يخبئها.. يخبئها في نفسه.

- غريب حالي هذه الأيام، لم أعد أرى سوى الأوهام، ليل طويل موحش كله ظلام، أحلام باتت باهتة، أصوات مزعجة تتوعد بالانتقام، ضائع أنا في دوامة النسيان، أستلقي على فراشي المرئي نعم لم أعد أنام، ليس لي صديق سوى ظلي وعنكبوت ينسج من خيالي. خوف من اللاشيء، خوف من الفراغ، أحاول جاهدا الهروب من واقعي لأجد نفسي، سجينا متألما بائسا أحاول ربط طريقي بأشخاص ظننتهم جزء من عالمي لكن لم أعد أرى في أعينهم سوى الشفقة، غريب حالي هذه الليالي مع كل هذا البرد لكن لا أبالي ما عاد جسدي يحسّ بهذه النسمات الباردة، ما عاد عقلي يصدق هذه الوعود الزائفة، ما عاد قلبي ينبض وما عادت عيوني تدمع، كل ما تبقى مجرد تمثيليات ومشاعر ذابلة أسقيها بتفاهات حول الشمس.

ستشرق حياة جديدة كأنها لم تك تشرق ولكنها مجرد أحلام ضائعة.

لم نرد إزعاجه أكثر حول شعره الأبيض بعد أن شرح لنا الطبيب النفسي ذلك، بالنسبة إلى مسألة رجوع أبيه إلى الحياة، لم يصدق ذلك وصرخ قائلا:

- كيف؟ كيف له أن يغيب علينا كل تلك المدة ونحن ظننا بأنه من الأموات

- لكنه أنقذ حياتك

- كيف له أن ينقذ حياتي وأنا لم أره حتى، ومتى كانت حياتي مهددة بالموت، الآن هي مهددة ولا أحد ينقذها، لا أحد

- أتتذكر حينما ضربت إلى الرأس، من أخذك إلى المستشفى واعتنى بك حينها

- رجل مسن غريب لا أدري من هو؟

- الرجل المسن هو أبي!

- لكن كيف يظهر فجأة هكذا؟

- أنت لا تصدق أنا أعلم، انظر إلى البطاقة وقل لنا من هذا

لقد تفقد البطاقة ولاحظ أن أباه قد زورها لسبب نجهله وقال:

- ألم تلاحظوا أنه يحمل بطاقة مزورة هذا ليس اسمه الحقيقي

- نعم، نحن نعرف أنه زورها لكن الآن العلم لله، القضية معقدة نوعا ما، وأتينا لنطلب مشورتك في الأمر سنذهب لزيارة أبي ونطلب منه تفسيرا لكل الأمور التي نجهلها...

- حسنا، اذهبي واطلبي منه تفسيرا لعله شيء مهم

- شيء أهم منا

- شيء يبقى في مصلحتنا

- لكن...

- في الأخير سيبقى الأب أبا.

لقد انتهى وقت الزيارة وماكان علينا سوى أن نودعه ونذهب في طريقنا إلى منزل العم نزيم، لقد كان كل شيء مزور، ربما العنوان أيضا، أفف لا أتمنى ذلك.

لقد كان المكان بعيدا جدا لقد تطلب منا ذلك وقتا كبيرا للوصول لقد كان الحي الذي يسكنه العم جد خلاب، لا شك أن البرجوازيون فقط من يمكث هنا.

مرت أيام وسنين وأنا أنتظر وأنتظر لحظة أحس فيها بالسعادة العظمى بجانب من أحب وأهتم لأمرهم ولكن دون جدوى فأنا مكتوب عليّ الشقاء والعتمة في عالمي، أحس بالحزن في داخلي تعبت من الحرمان، تعبت حقا تعبت أتمنى من الله ألا يخيب ظني وأملي.

استجابت لرنين جرسنا فتاة شابة في ملابس سوداء، جميلة الوجه لعلها امرأة الدنيا إنها....

لقد هجمت عليها آية صارخة:

- أين أبي؟ أين هو؟ آه لقد أحسن الاختيار في خيانة أمي مع فتاة شابة جميلة مثلك، أين هو أخبريني وكأنني أتيت لرؤيته شوقا ربما لم يخبرك بأنه متزوج من قبل وأب لولدان.

قالت الفتاة والدموع تنساب من عيناها:

- أنا مجرد خادمة لا أكثر، والسيد خليل ليس متزوجا فهو يعيش لوحده.

البراءة، الصدق، الجمال، الحنان، الحب، كل هذا يأتي من تلك الفتاة الشقراء التي لا أجد لها معاني لأعبّر بها عن جمالها الخالد، أحمم...

لطالما كانت آية فتاة متهورة وتتكلم دون تفكير، وكانت أيضا عطوفا على الجميع، راحت لتواسيها وتأسفت منها، كانت الفتاة جد حساسة ولطيفة تقبلت تأسفها بكل سهولة، لقد أعجبت بها من أول نظرة، لطالما لم أؤمن بحب النظرة الأولى...

لقد سألت آية:

- أين هي غرفة أبي، أرجوك

- أجابت الفتاة بصوت خافت، فهي فتاة مرحة ضاحكة مقبلة على الحياة كالطائر المغرد:

- إنها في الطابق الثاني ولكن صدقيني إنه ليس هنا، فهو لا يتواجد في البيت كثيرا.

- حسنا، حسنا أنا أصدقك.

دخلت آية إلى الغرفة لقد كانت مرتبة ونظيفة وقالت:

هذه عادة أبي لا يستطيع أن يهمل غرفته مع كل هذه المشاكل.

بينما هي تبحث في الكتب وفي الخزانة وأنا أتعرف على الخادمة ليلى قالت آية:

- هلا أخبرتني يا ليلى كيف تعرفت على السيد خليل وكيف أتيت لتعملي هنا؟

وكأنها تعيش منطوية على نفسها ولا تميل إلى مصادقة أحد ولا شك أنه كان لها العذر بسبب المتاعب التي صادفتها في طريقها للوصول إلى هنا والعم نزيم يعني لها الكثير.

إن السيد خليل يضع كل ثقته بي، لذا أرجوك أنا لا أستطيع أن أقول لك أي شيء بخصوص

هذا، انا جد متأسفة.

نزلت آية بسرعة عبر السلالم وقالت:

- هيا بنا يا نادر، أظن أن ليس لدينا وقت لنضيعه هنا.

لقد وجدنا في الميناء أحد أصدقاء العم نزيم أقصد خليل، لقد أخطأنا في ذكر الاسم وهذا بسبب آية المتهورة.

- عفوا سيدي، ولكن أريد أن أسألك إن أمكن

- أكيد، تفضلي

- أتعرف أحدا في الميناء باسم نزيم، نزيم إيهاب

- عذرا سيدتي، لكن لا أعرف أي أحد بهذا الاسم

قد يتساءل أي أحد لماذا ذهبنا إلى الميناء أولا، لقد وجدت آية في الغرفة كتاب اسمه «الحياة في البحر» ووجدت اسم خليل مسطر تحته، ويقول الكتاب أنه كان أعظم بحار في القرن الواحد والعشرين وقد نجى بأعجوبة ولكنه لم يتعمق كثيرا في الوصف فقط على سبيل المثال أنه معجزة من معجزات الحياة في البحر، لذا ذهبنا للميناء كأول مكان نستطيع أن نعثر على أي شيء من هناك.

نسيت آية بأن تخبره باسمه المزيف لذا أعطيته البطاقة، لقد كان ذلك الشخص طاعنا في السن، استطاع التعرف عليه وقال:

- نعم ومن لا يعرف السيد خليل، ولكن لم تخبراني من أنتما حتى تبحثان عنه؟

- في الحقيقة يا سيدي، إن السيد خليل أبي

- أبوك؟ لكن السيد خليل قان أنه لا يملك أولاد وهو لم يتزوج حتى، آه كيف سأصدقك؟ في البداية قلت أن اسمه نزيم و....

- صدقني أنا لست بكاذبة، ليس في مصلحتي شيء، ولما أكذب في موضوع كهذا

- ومع ذلك أنا أعتذر، لا أستطيع أن أخبرك أي شيء بخصوصه، وأن السيد خليل مجرد إنسان صائد للحيتان.

لقد ذهبت آية للسيارة وهي تبكي، ونسيت بأن تشكر السيد على المعلومة القيمة، وبقيت أواسيها وقلت:

- لكن لماذا أنت تبكين؟

- أرأيت يا نادر لقد قال إنه ليس لديه أولاد، لقدنسينا. نسينا تماما، أنا لست فخورة كوني ابنته.

- سنذهب غدا، وسنعرف الأمر.

- حسنا لنرى ...لكن كيف...

- فقط تصرفي كالعادة، إنه أبوك وليس بغريب.

نزيم فتى لطالما قد علمه والداه أن يتصرف بلطف وطيبة وأن يكون فتى جيد ولا يجلب المشاكل، كان من عائلة فقيرة للغاية، لقد أراد الأبوان أن يصنعا من ولدهما كآخر فرد في العائلة رجلا ناجحا، أرادوه أن يكمل دراسته عكس إخوته العشرة لكن هو لم يعمل بوصية والديه، لم يعد للدراسة فور موتهما وهو في المدرسة الإكمالية، لقد تقاسم كل من الإخوة إرث أبويهما الصغير، من هنا بدأت حياة نزيم المتشردة، من هنا لم يعد يرى الضوء، لقد بصم سبابته اليسرى في الحي، حتى رأى ملاكا تخرج من معهد الطب، تغير فجأة من الأسوأ إلى الأفضل، أعجب بها وتحول ذلك الإعجاب مع الوقت إلى حب . تزوج بها ولكن مع الأسف لم ينجبا أطفالا حتى بعد مرور ست سنوات استطاعت الأم أن تنجب صبيا صغيرا لطيفا سمّوه سعد على اسم والد الفتاة، لقد قام نزيم تقريبا بخيانة زوجته وأقام علاقة مع فتاة اسمها ياسمين، فقط أراد أن يحقق أمنيته التي لم يستطع تحقيقها مع زوجته وهي إنجاب أطفال ، لكن هذا كان قبل ازدياد سعد، استطاعت ياسمين أن تنجب فتاة شقراء حسناء أسمتها آية لكنه لم يكن يعرف بالأمر، أرادت ياسمين أن تبقي ذلك سرا لأنها اكتشفت أن نزيم لم يحبها يوما وكانت مجرد نكرة في حياته، وعلاوة على ذلك فهو متزوج .

التم شمل الأخوان سعد وآية، بعد أن ماتت الأم بمرض الإيدز، استطاع نزيم ادخال آية إلى العائلة بحجة أنه وجدها في الشارع وأتى بها، تبناها وأصبحت تحمل لقب إيهاب.

هنا تبدأ حياة نزيم الغامضة لأنه من هنا لم يعد له أثر واعتبر ميتا طوال كل هذا الوقت، لقد كان فصل الشتاء والأمطار غزيرة والثلوج تكاد تتساقط، في ذلك اليوم أخبر نزيم زوجته بكل حزن وكأنه لا يريد الذهاب بإرادته قائلا:

- اسمعي يا فلة، سأغادر في رحلة إبحار لعدة أشهر أرجوك تشجعي من أجل الأولاد.

شرعت الأم بالبكاء واكتست هيئتها سيماء الحزن وهي تقول:

لا، لا أرجوك لاأستطيع العيش بدونك، حتى الأطفال لا يستطيعون.

سأعود، وأعود بالكثير من المال أنا أعدك أرجوك، فقط كوني قوية واعلمي أنني أفعل كل ذلك من أجلك ومن أجل أولادي.

لقد كان الوداع صعبا على الأب وهو يغادر تاركا وراءه أولاده وزوجته لوحدهم، كان يعلم أنه سيعود يوما ما وسيشتري لسعد كمبيوتر، ولآية مكتبة كبيرة تحتوي على جميع الكتب الطبية والروايات التاريخية، وسيشتري لزوجته منزلا كبيرا وسيكون المطبخ أجمل ما فيه وحتى النظارة التي كانوا يتشاجرون عليها، فهما يملكان فقط نظارة واحدة فكلاهما لا يرى جيدا، لطالما كانت العائلة تحلم بهذه الأشياء ونزيم ما عليه سوى تحقيق الأحلام إلى حقيقة، ووصّى آية على أخيها سعد كونها أكبر سنا:

بنيتي أنت الأخت الكبرى الآن لذا ...

يكفي حان وقت الذهاب الآن، بعد أن مشى بضع خطوات عاد مسرعا ليعنق فلة وليتبادل قبلات الحب الأخيرة، إحساس داخلي غمره بأن هذا اليوم هو آخر يوم، كان سعد يصرخ قائلا:

أبتاه، أبتاه عد أرجوك

سيعود قريبا، قريبا جدا أنا أثق به

كان الصباح يضحك على الأرض المهذبة والباردة، وصرخات عصافير ثاقبة ذات صوت غير واثق، وفيض من نور لا هوادة فيه تضفي كلها على الصبيحة وجها من البراءة والحقيقة، لقد كانت تلك الليلة مثلجة بمعنى الكلمة وكان العالم صامتا، جميع أهل القرية كانوا يمكثون في منازلهم ويتجمعون أمام المدفأة مع كل العائلة ويغنون أغنية السعادة، أما

فلة وأبناؤها يبكون ويبكون على رحيل أعز شخص، ويواجهون مصيرهم ومستقبلهم وحاضرهم.

لم تكن الرحلة سهلة كما ظن الجميع وأن نزيم نسي أبناءه وزوجته، لا بالعكس لقد شرح كل هذا لآية «لقد كان الجو مضطربا عندما أقلعنا بالسفينة، لكن ما كان بانتظارنا كان أبشع لا تستطيعين تصوره، لقد كان هدف هذه الرحلة هو صيد المرجان من البحر الأبيض، هذا هو الشيء الوحيد الذي كذبت فيه على أمك، لقد خضنا مغامرة مجنونة، إنه موسم الشتاء ويمنع منعا أن نصطاد المرجان في هذا الموسم وفوق كل هذا أننا لا نملك رخصة للصيد، كدنا أن نموت وكادت الحيتان تلتهمنا ونحن أحياء، لقد كانت السفينة جد ثقيلة لذا اضطررنا إلى رمي الوقود الذي كان بحوزتنا إنها فكرة غبية كنا نظن أننا سننتهي من الصيد في الوقت المحدد، لكن لا اكتمل الوقود بسبب الصقيع، لقد استطعنا أن نحصل على كمية كبيرة من المرجان لكي نعيش عيشة هانية، لكن حدث مالم يكن في الحسبان لقد انقلبت السفينة رأسا على عقب، كنت أنا وليلى الناجين الوحيدين من الموت .

ليلى فتاة مسكينة لقد كانت تعمل في السفينة كطباخة، لكنها كانت تحتقر كثيرا لقد اعتبرتها مثل ابنتي واعتنيت بها ولم يمسسها شر، المهم عندما انقلبت السفينة استطعنا أن نطلب يد المساعدة من أحد الصيادين لقد نجينا بأعجوبة لقد كانت معجزة حتما، شكرت الله بعد أن وصلت، استطعنا إنقاذ صندوق المرجان أيضا، لقد اشتريت منزلا أمام البحر وسيارة فخمة، لقد قلت في نفسي سأرجع إلى الديار بعد ما مرت شهور عديدة، أردت ذلك لكن لم أستطع إنه القدر يا بنيتي، لقد مرضت ولقد كان مرضا مزمنا لقد أصابتني الحمى القرمزية ، أعلم أنها عادة ما تصيب الأطفال، لكن في البحر لم نكن نأكل، فقط الحبوب والأشياء المعلبة لا أكثر، لقد كانت الحمى القرمزية معدية لذا لم أرد أن أذهب إلى البيت فهي خطيرة اعتنت بي ليلى لأنها أصيبت به في الصغر وأنا هكذا لمدة سنتين، لقد سمعت إشاعة بأن كل الناس في القرية اعتبرتني ميتا لذا لم أعد، أنتم خالفتم القانون لأن الإنسان إذا لم يعد له أثر بعد خمس سنوات سيعتبر ميتا لذا زورت اسمي

وكل وثائقي، سأفسد كل شيء إن ظهرت مرة أخرى في حياتهم، ستتعقد الأمور أكثر فأكثر، لذا قررت أن أبتعد وأرى كل شيء من بعيد، كل ما أريد قوله هو أنني آسف، آسف للغاية كل شيء حدث بسببي، لقد كان هذا القلق يشب في نفسها وينمو ويتراكم منذ زمن طويل ، نضج هذا القلق في الآونة الأخيرة وتركز فإذا هو يتخذ صورة سؤال رهيب ، سؤال عجيب، سؤال لا جواب له:

- ولكن فيما يفيد التأسف، لقد فات الأوان فات، أمي ماتت وأنت لم تراها حتى يا للعار يا أبي كيف تركتنا؟ كيف؟، لقد كانت مصابة بمرض القلب الذي كانت قد أهملته وزادته غنى بحياتها اللامبالية، تركت أمي هذا المرض ينهشها، وكان هذا التعذيب قد استمر طويلا إلى حد جعل الذين يحيطون بها يعتادون على المرض وينسون أن بإمكانها أن تنهار بسبب إصابتها الخطرة تلك، وماتت ذات يوم والآن على النقيض فإن الفقر والوحدة كانا بؤسا فظيعا. مع كل ذلك الذي حدث معك لكنه ليس سببا مقنعا لترك زوجتك وأولادك، ليست لديك أي فكرة كيف عانينا، ومع تلك الرسالة لقد أصبحت مقهورة، انهرت.

وحين كان نزيم يفكر بحزن في الفقيدة، كانت شفقته في الواقع ترتد إليه كان باستطاعته أن يعالجها بطريقة أو بأخرى إن كان...

- أنت لا تؤمنين بالقضاء والقدر يا بنيتي، لننسى الماضي ونعش الحاضر يا بنيتي ، ومن قال أنني لم أتكلم مع أمك قبل وفاتها، لم تنتبه لوصولي ولم تسمع وقع خطواتي لقد كانت غارقة في نوع من الخيال، أصبحت لا ترى شيئا ولا تسمع شيئا، ركعت على عتبة الباب، فلما رأتني وقفت أمامي منذهلة، ثم خرجت من تأملاتها ربما لتحاول أن تفسر لنفسها سبب مجيئه وصرخت فجأة لأنها اكتشفت أن زوجها مازال حيا يرزق، إن ذلك الوجه الذي التهمه مرض القلب يحدث مرآه على ضوء الشمعة الصغيرة الذائبة أثرا في النفس أليما ..أليما جدا ، لم نتشاجر أبدا ولم تسألني عن غيابي فقط عانقتني وقبلتني وقالت :

- إن كنت لم أمت بعد، فأنت هو السبب لأنني أمضيت كل حياتي أنتظر هذه اللحظة، لقد انفطر قلبي.

لقد سـقطت دمعة حب وشـوق من عين نزيم، الشيء الوحيد الذي اسـتطاع أن يحققه العم نزيم هو أن يشـتري نظارة لزوجته قبل وفاتها، سـيعوضهم عن الأيام الخوالي بحبه وعطائه سـيعوضهم.

بعد مرور تسعة أشهر

وأخيرا خرج سعد من السجن بعد أن قضى سنة كاملة، لو لم يقضها لكان ضميره قد أنبه طيلة حياته إنه مؤمن بالرب ومقتنع بأن ليس ثمة إنسان مذنب حدّ ألا يغفر له الرب، لكن لكي يتم ذلك ينبغي عليه أن يصبر في توبته كالطفل ذي الروح الصافية القابلة أن تتلقى كل شيء، لقد عوقب على خطيئته، واليوم تقريبا هو سعيد بشعره الأبيض الجديد وهو يرى عائلته ملمومة شملها وهم تناولوا العشاء الأخير، أوليس ذلك أجمل شيء يتمناه المرء عندما يمر بتجربة كهذه، لقد قال الأب:

- بني سعد لقد قررنا أنا وأختك وليلى أن نذهب إلى لندن، أتود أن ترافقنا، قاطعت آية الكلام قائلة:

- وسنأخذ معنا طفلي الصغير أيضا.

- أكيد، أوتريدين أن تتركي لي رضيعا صغيرا آه يا لغبائك يا أختي، سيخرج ابنك مثلك دون شك.

- ههه.

- هيا سعد أنت لم تجيبني على سؤالي

- في الحقيقة يا والدي إن المقهى أمانة في رقبتي، صدقني كنت أريد ولكن لا أستطيع أنا آسف.

- لا يا أبي ليس المقهى من يشغل باله، بل الفتاة الشقراء.

لقد احمرّ خجلا وقال:

- وقحة

ضحك الجميع على تصرفاتهم الصبيانية، حلّ الليل وذهب الجميع إلى مخادعهم لم تستطع آية النوم مع صراخ ابنها أما أنا وسعد لقد بدأنا ندردش عن الأمور التي كان غائبا فيها والتي لم أستطع التحدث عنها في وقت الزيارة القصير.

- أتعلم يا سعد ماذا حل بإلينا، الحقيقة أنها أصبحت جراحة وقد عملت عملية جراحية لفتاة صغيرة، واحزر ماذا نسيت بداخل المريضة، نسيت شاش التعقيم داخل أحشائها.

- لا أكاد أصدق!

- منذ ذلك اليوم لقد بقيت في المنزل منطوية على نفسها وأصابتها هستيريا حادة

أصبحت تتخيل تلك الفتاة في كل مكان، مازالت تتابع طبيبها النفسي في لندن.

-إن الإله عاقبها على فعلتها تماما كما عاقبني أنا، يجب أن تخجل من ارتكاب الخطأ وليس الاعتراف به، أحيانا يكون الخطأ الذي نرتكبه في حياتنا ونرتكبه عن قصد سيكون أسوأ شيء نحصده في المستقبل لأن الحياة مجرد امتحان فهي تمتحننا وترى نتائجنا وإن رسبنا ستعاقبنا أكيد، عند الخسارة دائما يوجد عقاب، في الحقيقة يا سعد أودّ أن أقول لك شيء.

- نعم تفضل

- بدون زخرفة في الكلام وبدون لفّ ودوران، أنا معجب جدا بليلى أو بالأحرى أنا أحبها لكن لا أعرف إن كانت تبادلني نفس الشعور أم لا.

- أنت تعلم أن الرومانسية في جهة وأنا في جهة أخرى، إذن ما عليك سوى الذهاب إليها وأن تقول لها الحقيقة وتصف حبك بكل صدق.

- حسنا اعتبرني أنني لم أسألك ...

بينما كنا نتحدث، لقد كانت تتنصت علينا ليلى وسمعت كل الكلام الذي تحدثت عنه مع سعد، احمرّت وجنتاه خجلا لقد هرولت اتجاهها وكان سعد يضحك على موقفي المضحك وقلت لها:

- أوليس من اللائق التنصت على الناس خفية.

- بالتأكيد لا أيها المغفل، لقد كانت مجرد صدفة

- لقد سمعت كل شيء دار بيننا إذن ...

لقد بقيت صامتة وكأن لسانها ابتلع

- الصمت من علامات الرضا، أنت تحبينني أليس كذلك

- بالتأكيد. لا

كنت أعلم أنها تحبني وهذا الجواب كان مزيفا دون شك، لقد رأيت الإجابة في عينيها وترددها في الذهاب إلى لندن

- سأنتظرك طول عمري، سأنتظرك كل العمر

عندما أراها حبي يشوبه إحساس عجيب، فإني أفرح بها وأحس بمتعة حلوة لمجرد رؤيتها، أضعها في خيالي كأنها أجمل بنت من البنات، بيضاء ناصعة كنور الشمس، لا كنور القمر لأن نور الشمس حارق، ليست جميلة وإنما بمنتهى الجمال، ليست ذكية وإنما في منتهى الذكاء، كأنها تضع نفسها فوق المجتمع كله مع إحساسها بأنها أرقى وأسمى من هذا المجتمع، سأنتظرها.

قد ودع سعد اليوم أبوه وأخته وأوصلتهما أنا إلى المطار بسيارتي، سعد لا يحب قول كلمة الوداع، لذا توديعهم سيكون من النوع الخاص، توجه مباشرة إلى منزل السيدة فردوس حيث تسكن مريم.

مريم فتاة مازالت طالبة في معهد الصحافة في العاصمة، شقراء ذو شعر ذهبي وعينان زرقاوين كزرقة البحر وبشرة صفراء، ولكن مع الأسف إن الناس لا يرون كل ذلك الجمال وهذا بسبب إعاقتها، واجهت مريم المصاعب رغم إعاقتها، أصبحت مريم تلتقي بسعد سرا في الحديقة. في تلك اللحظة لمحتها، كانت تجلس على كرسي متحرك عند الشرفة، وقد انكبّت تطالع كتابا {سونيتات شكسبير}، متجاهلة فوضى العالم منحولها ظهرت أمامي مثل حورية من... يختزل مفهوم الجمال في طلتها البهية، عندما رأيت الفتاة من دون أن نتبادل الكلمات تحاورت بالفعل مع مشاعرها، كيف تكون تلك الفتاة؟ كانت لحظة خاطفة سلبتني لبيّ.

«عندما يحاصر طلعتك أربعون شتاء

فتحفر الغضون العميقة في حقل جمالك «

«فإن هيئة شبابك المفعم بالحيوية والتي ننعم الآن فيها بالنظر

ستغدو كعباءة رثة التي تقدر بثمن زهيد»

«فإذا ما سئلت عن مكمن حسنك بأكمله

وعن كل كنوز أيامك الشبقة «

«فلتجب من خلال عينيك الغريقتين في الأعماق

عن الخزي الذي لم يدع شيئا، والإطراء الذي لا يجدي»

«أي أحد من الثناء تستحقه ثمرة جمالك

لو أنك استطعت الجواب قائلا:هذا الطفل البديع الذي ينتمي إلي، سيجمع حظي ويكون العزاء والتبرير فيك هولتي ويكون جماله البرهان على انتسابه إليك»

«هذا هو ما يجددك مرة أخرى حين يتقدم بك العمر

فتسترد شعورك بحرارة دمك بعدما أحسست به بردا «

- هل تعرف شكسبير

- تقريبا

تعرفا إلى بعضهما البعض، كان قد ذهل بجمالها وأناقتها، ففي وجهها العريض قليلا كانت لها عينان مذهلتان بلغتا من أناقة الخضاب بحيث كانت تبدو وكأنها آلهة مرسومة الوجه بيد حاذقة، وكانت لها بلاهة طبيعية تلمع في عينيها فتزيد هيئتها اللامبالية الهادئة تعبيرا.

أصبح سعد يأتي كل مرة بحجة رؤية مريم، في ذلك اليوم لقد طلب سعد الزواج من مريم، وقال وهما يمشيان في الحديقة كانت صبيحة ربيعية جميلة متلألئة باردة، ذات زرقة صافية وشمس ساطعة باهرة ولكنها من غير حرارة، كانت أشعة صافية تسيل على الجذوع:

- لم أكن أخطط أن ألتقي بفتاة مجنونة وأن أقع في حبها وأرغب بها.

- أنا مجنونة، ونظر إليها حالما وقال:

- هل تتزوجينني؟

احمرّت خجلا وقالت:

- بهذه الطريقة، أنت لست رومنسيا البتة، نحن لا نعرف الكثير عن بعضنا ولم يكن أمامنا الوقت لبناء الثقة، لقد حدث كل شيء بسرعة أعني كم مضى على معرفتنا ببعضنا؟

- بضعة أيام

- هل هذا الوقت كافٍ؟ أيكفي لأن نكون واثقين؟

- عندما رأيتك لأول مرة علمت أنه لا يجب أن أبقى وحيدا، ولكنك لست مضطرة للإجابة الآن، فأنا سأذهب إلى بغداد لمدة ثلاثة أشهر وعند عودتي ستقررين

- حسنا سيكون وقتا كافي لقراءة الجريمة والعقاب والجواب على سؤالك.

- خذ هذا الأمر على محمل الجد

- حسنا، لم تخبرني ما بال شعرك الأبيض

- حقا، لم أخبرك؟، ثمة أشياء ما أحببت قط الحديث عنها

إنهـا تعويـذة مـن سـاحرة لـكي أخطـف قلـوب الفتيـات الحسـناوات أمثالـك، هـه إنهـا قصـة طويلـة.

حسـنا أنـا بحاجـة كاملـة لـك الآن يـا برعمـي، سـوف تزرعـين الكثـير مـن الأزهـار في الحديقة، في حديقتنـا لأن كل شيء أملكـه أنـا تملكينـه أنـت، عنـد غيـابي سـوف ترسـمينها بـكل الحـب الـذي في قلبـك سـتكون رمـز حبنـا

- أنت واثق جدا من نفسك، أي حديقة تتكلم عنها؟

- حقا لم أخبرك بهذا أيضا

- حسنا على الذهاب الآن أنا أكره كلمة الوداع،

لقد تبادلا قبل الحب الأخيرة.

أما أنا فعدت إلى القاهرة، إلى الجامعة، إلى عمتي الثرثارة، أفف...

لقد مرت ثلاثة أشهر ولم أتلقَ أي مكالمة من سعد، لقد بدا كل شيء بسيط لم أعتقد أن الحب صعبا لهذه الدرجة لماذا يشتد الحب في حال الغياب؟ لماذا؟ تمر كل دقيقة كأنها سنة، كأن لا نهاية لها، تمر كل دقيقة بطيئة وشفافة كالزجاج، أرى من خلال كل دقيقة سلسلة من الدقائق اللامتناهية مصطفة وراء بعضها البعض، لماذا رحل إلى حيث لا أستطيع اللحاق به؟

يقولون إن نصفك الثاني سيكون بنفس أخلاقك، يا ليتني أجبت. كم كنت سخيفة!.

أوه يا حبيبي، أجل، سأتزوجك، لو أنك سمعت نبضات قلبي لما رحلت وتركتني، لقد أحببتك من لحظة أن شاهدتك في الثواني الأولى وأنت تحاول مغازلتي بالسونيتات.

أنا بحاجة كاملة لك الآن، وكأنني خيرت دوسويفيسكي عليك، لقد قلت أنني سأقرأ الجريمة والعقاب مع أنني قرأتها من قبل، يا لك من مغفلة، مغفلة.

«أنا لا أعرف إن كان لقاءنا صدفة أم مصير أو الذي ينتظرنا أمل أم يأس»

«تمت بإذن الله»

الفتى الملاك

في زمن بعيد، بعيد جدا عندما كان العالم تحت رحمة الملائكة كان يعيش فتى رائع، لا يقلّ عن الروعة، لقد كان يعتبره أهل القرية بمثابة إله، فكانوا يستشيرونه في كل شيء، كان ذلك الفتى. الفتى الملاك، لم يقدم يوما على فعل معصية أو خطأ لا يحقد ولا يكره، فقط يحب ويصادق، كان فقيرا يمكث عند الرجل الغني الذي لا يبتسم مع جواده الأبيض.

كانت ليلة خريفية ممطرة، في ذلك الليل المقمر لقد أتى الجميع صغيرا كان أو كبيرا اتهمه بقتل فتاة وقالوا:

-ناكر للجميل، أحسنا إليه فرد الإحسان إساءة!

وقرروا أن يعاقبوه، وكان العقاب الموت، سوف يعاقب على جريمة لم يقدم على فعلها البتة، أحيانا يجب أن نتحمل قدرا من المسؤولية عن الخطأ.

أتى اليوم المنشود بينما يأخذونه إلى المقصلة، لقد تحولت السماء إلى الأبيض وبدت وكأن العالم توقف، هبط الملاك «إيفان» من السماء السابعة وأصبح الفتى الملاك خالدا في السماء، أما «إيفان» فأهلك الجميع لما اتهموه بالباطل فهم عاقبوا أحدا على شيء لم يقدم على فعله فعوقبوا.

بقي الجواد الأبيض وحيدا في تلك القرية، ربما سيأخذ الفتى إذن من الإله لكي يصعد الجواد ليتحول لبراق.

وأنت متى ستبدأ هذه الرحلة الطويلة إلى ذاتك...؟
يوما ما...